هل نـجحت المخابرات السوفيتية في تجنيد مستشار عبد الناصر؟

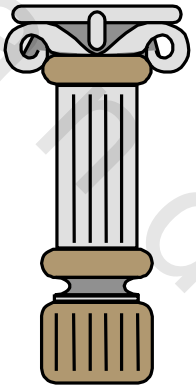

الفصل الثاني

obeikandl.com

obeikandl.com

في عام 1974 أصدرت مؤسسة "الريدرز ديجست الأمريكية" بنيويورك كتابًا ضخمًا بلغ عدد صفحاته 462 صفحة، وكان عنوانه غريبًا. ذلك لأنه لم يتكون إلا من ثلاثة حروف لاتينية كبيرة هي (K.G.B) كُتبت بلون أبيض على الغلاف الأحمر للكتاب، وتحت هذه الحروف الثلاثة التي لم تكن تعني أي اصطلاح معروف باللغة الإنجليزية، كانت مكتوبة بضعة أسطر سوداء باللغة الإنجليزية كانت ترجمتها العربية هي: (العمل السري للعملاء السريين السوفيت ـ تأليف جون بارون John Barron) وهكذا اتضح أن الحروف الثلاثة K.G.B إنما هي اصطلاح باللغة الروسية يدل على أخطر جهاز سري سوفيتي ظهر في التاريخ، وهو جهاز المخابرات والجاسوسية في الاتحاد السوفيتي، ذلك الجهاز الذي يعمل في خدمته نحو نصف مليون شخص، وتشغل رئاسته ثلاثة مبان كبيرة في ميدان ديزرزنسكي بموسكو.

إن جهاز المخابرات العامة السوفيتي هو الأداة الرئيسية التي عن طريقها يتمكن الحكام السوفيت من حكم بلادهم ومن رسم السياسة الخارجية السوفيتية ويتحكم هذا الجهاز في مصير نحو 250 مليونا من مواطني الاتحاد السوفيتي وعدد آخر لا يحصى من مواطني الدول التي تدور في الفلك السوفيتي، وقد قام بتأليف الكتاب كاتب أمريكي معروف يدعى (جون بارون). كان محرراً قديمًا في مجلة (ريدرز ديجست)، والتحق في بداية الخمسينيات بمدرسة المخابرات التابعة للبحْرية الأمريكية، وتخصص في اللغة الروسية، وعمل في برلين لمدة عامين كضابط مخابرات، وعندما تم تسريحه من البحْرية عام 1957 انضم إلى أسرة تحرير جريدة (واشنطن ستار)، حيث أكسبته مقالاته وتحقيقاته الصحفية شهرة كبيرة ومكانة مرموقة.

وقد أثار الكتاب منذ صدوره ضجة كبرى في شتى أرجاء العالم إذ إنه كان أول مرجع موثوق في صدقه، يكشف الستار عن الأسرار الخطيرة للجهاز السوفيتي الرهيب

K.G.B، ماذا يفعل؟ وكيف يمارس نفوذه الخفي الواسع النطاق على المستوى العالمي؟ ولم يتمكن (جون بارون) من تأليف كتابه الذي حاز كل هذه الشهرة إلا بعد أن أمضى أربع سنوات جريًا وراء البحث والتحقيق في حقيقة نشاط هذا الجهاز، الذي تشعبت عملياته وامتدت سطوته إلى كل مكان على وجه الكرة الأرضية.

لقد أتيحت للمؤلف الفرصة لدراسة آلاف الوثائق في أرشيف وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. كما تم له معرفة الكثير من الأسرار بالتعاون مع معظم أجهزة المخابرات في العالم الغربي، وأهم من ذلك كله هو تمكنه من عمل لقاءات مع عدد من ضباط المخابرات السوفيت السابقين الذين فروا من تحت السيطرة المحكمة للجهاز الجبار الذي كان يتولى تشغيلهم، ولجئوا إلى دول أوروبا الغربية أو إلى الولايات المتحدة، وقد كشف هؤلاء باعترافاتهم الستار عن أدق أسرار جهاز المخابرات السوفيتي، كما كانوا السبب في انكشاف أمر عدد كبير من عملاء السوفيت في مختلف بلاد العالم.

ومن بين أهم ثماني عمليات في العالم أحرز فيها جهاز K.G.B السوفيتي نجاحًا باهرًا، وسجلها المؤلف على غلاف كتابه، عملية تتعلق بمصر وكان عنوانها "كيف احتال جهاز K.G.B سرًّا على الرئيس المصري ناصر بتجنيد مستشاره الخاص؟"، وقد اتضح أن ضابط المخابرات السوفيتي الذي روى للمؤلف الأمريكي أسرار هذه العملية الخطيرة، كان عميلاً مزدوجًا، عمل لحساب المخابرات السوفيتية K.G.B في الوقت الذي كان يعمل فيه لحساب المخابرات المركزية الأمريكية C.I.A وهو يدعى (فلاديمير سخاروف Vladimir Sakharove)، وقد تمكن من الهرب واللجوء إلى مندوب المخابرات المركزية الأمريكية بالكويت، قبل منتصف الليل يوم 10 يوليو 1971 بعد أن وصلت إليه إشارة التحذير من الأمريكيين بأن المخابرات السوفيتية قد اكتشفت أمره، هذا وقد عقد جون بارون عدة لقاءات مع ذلك العميل المزدوج الذي زاول نشاطه السري في ثلاث دول عربية هي اليمن ومصر والكويت، وكشف له العميل من خلال اعترافاته عن كثير من أسرار وأساليب عمل المخابرات السوفيتية في هذه الدول، كما كشف له عن أسماء

بعض أصحاب المراكز المهمة في مصر الذين جندتهم المخابرات السوفيتية للعمل لحسابها .

كيف كان يتم للمخابرات السوفيتية تجنيد العملاء السريين؟

من المعلومات التي سجلها جون بارون عن قصة العميل المزدوج سخاروف التي دونها في الفصل الثاني من كتابه الذي جعل عنوانه " أسرار من الصحراء " والذي بلغ عدد صفحاته 340 صفحة (من الصفحة 29 إلى 64) نعرف أن سخاروف كان عام 1967 شابًّا وسيمًا في الثانية والعشرين من عمره، ذا جسم قوي مفتول العضلات، انحدر من أسرة تعتبر بالمقارنة بالأسر السوفيتية ذات ثروة ونفوذ .

وكان والده محل ثقة المخابرات السوفيتية بحكم عمله عشرين عامًا في وظيفة حامل حقيبة دبلوماسية بوزارة الخارجية، وقد قام والده بأداء خدمات جليلة للمخابرات السوفيتية خلال عمله بالخارجية، مما جعل له كثيراً من الأصدقاء من أصحاب القوة والنفوذ في موسكو، وبحكم دراسة سخاروف اللغة العربية لمدة خمس سنوات في معهد العلاقات الدولية بموسكو حتى أتقنها انفتح أمامه باب العمل بوزارة الخارجية السوفيتية، فأرسلته للتدريب لمدة ستة أشهر في القنصلية السوفيتية بميناء الحديدة باليمن الشمالية، فذهب بمفرده وترك زوجته الحامل في طفلهما الأول في موسكو .

وكانت الحكومة السوفيتية تسيطر سيطرة كاملة وقتئذ على الرئيس اليمني عبد الله السلال، ولم يكن السلال يرغب في أن تتم مقابلاته مع السفير السوفيتي (ميرزو رحماتوف) علانية في العاصمة صنعاء، مما دعا المخابرات السوفيتية إلى شراء منزل بالقرب من الحديدة لتجعل منه مكانًا لعقد لقاءات السلال مع السفير السوفيتي، وكان التنافس من أجل الحصول على نفوذ في اليمن على أشده وقتئذ بين الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية، ولذا كان الصينيون في الحديدة يسببون متاعب كثيرة للجالية السوفيتية التي كان الحي السكني المخصص لأفرادها لا يفصله سوى جدار واحد عن القنصلية

الصينية بالحديدة، وانتهز الصينيون فرصة الهزيمة التي حاقت بالعرب في حرب يونيو 1967 لشن دعاية شعواء ضد الاتحاد السوفيتي باتهامه بخيانة العرب، وبأنه كان السبب وراء هزيمتهم في الحرب.

وفي صباح 10 يوليو 1967، وبينما كان سخاروف وحده في مكتبه بالقنصلية أحاطت بالقنصلية مظاهرة صاخبة اشترك فيها نحو 1500 يمني، يتقدمهم بعض المحرضين والمهيجين من الصينيين، وكادوا يحطمون القنصلية ويفتكون بسخاروف الذي أوصد جميع الأبواب والنوافذ، وواجه المتظاهرين وحده لولا وصول النجدة من القوات المصرية التي تمكنت من تفريق المظاهرة، ومن إنقاذ سخاروف، وخلال عمل سخاروف باليمن كقائم بأعمال القنصل بسبب قيام القنصل الأصلي بإجازته في موسكو، اتصل به مندوب المخابرات السوفيتية في الحديدة فلاديمير ايفتشينكوف، وتم له تجنيده للعمل لحساب المخابرات، وطلب منه تقديم تقارير سرية عن جميع أفراد الجالية السوفيتية بالحديدة، خاصة الذين لهم علاقات واتصالات بالعرب، كما طلب منه الحصول على معلومات عن الحامية المصرية في الجديدة.

واستمر سخاروف يقدم تقاريره السرية بهمة ونشاط إلى مندوب المخابرات حتى نجح في الحصول على ثقته، ونتيجة لذلك أرسل رجل المخابرات ايفتشينكوف إلى إدارته في موسكو يعدد مواهب سخاروف ويرشحه للعمل ضابطًا في المخابرات السوفيتية، وعندما صدقت وزارة الخارجية على عودة سخاروف إلى موسكو بعد انتهاء المدة المحددة له للتدريب رأى لأول مرة طفلته الجميلة إيكاترينا، ولم تكد حفلات الترحيب التي أقيمت له في موسكو بمناسبة عودته تنتهي حتى جاءه استدعاء سري في نوفمبر 1967 ليقدم نفسه إلى أحد العناوين في موسكو، وعندما وصل إلى ذلك المكان قابله فاسيلي إيفا نرفش الذي علم بعد ذلك أنه مندوب المخابرات الذي تولى عملية تجنيده، وفي يناير 1968 تم تعيين سخاروف كملحق في القنصلية السوفيتية في الإسكندرية، وسافر هذه المرة وبصحبته زوجته الجميلة ناتاليا وابنته إيكاترينا.

وعلى رصيف الميناء وجد سخاروف رجلاً في الأربعين من عمره ينتظره ويرحب به قائلاً أنا (فكتور سبيرونوف) نائب القنصل في الإسكندرية، حجزت لك شقة جميلة في نفس المبنى الذي أقيم فيه، تعالوا فإن زوجتي تنتظركم لتناول العشاء معنا، وفي شقة سبيرونوف دار حديث طويل فهم منه سخاروف أن مضيفه يعلم كل شيء عنه، وأدرك على الفور أن سبيرونوف هو رجل المخابرات السوفيتي في الإسكندرية، وتم الاتفاق على أسلوب العمل بينهما وتناقشا في تفاصيلَ كثيرةٍ تتعلق بعملهما السري المشترك.

وكانت الفترة التي أمضاها سخاروف في مصر من أخطر الفترات بالنسبة لنشاط المخابرات السوفيتية في الشرق الأوسط، وكان أشد ما يثير قلق السوفيت هو احتمال توصل مصر وإسرائيل إلى تسوية سلمية بينهما، مما قد يؤدي إلى انتهاء حاجة مصر إلى الأسلحة والمعدات السوفيتية، وبالتالي إلى إنهاء الوجود السوفيتي في مصر.

وكان ذلك هو ما دفع المخابرات السوفيتية إلى إنشاء مؤسسة سرية في مصر تابعة لها كانت تستهدف من وراء إنشائها استمرار فرض سيطرتها على مصر في المستقبل، ولذا بذلت مجهوداتها لتجنيد عملاء لهذه المؤسسة في المجال العسكري وفي أجهزة الأمن والصحافة وفي الجامعات وفي الاتحاد الاشتراكي. بل وبين مستشاري عبد الناصر الشخصيين، وكانت تحاول أن تشكل من هؤلاء العملاء نواة لطبقة جديدة تدين بالفضل والولاء للاتحاد السوفيتي، وأسندت لسخاروف مهمة ترجمة تقارير عملاء السوفيت في الإسكندرية إلى اللغة الروسية، كما أتيحت له الفرصة للإطلاع على البرقيات السرية المتبادلة بين موسكو وأجهزة مخابراتها بالإسكندرية، مما جعله يكون حصيلة ضخمة من المعلومات عن النشاط السري السوفيتي في مصر، ولم يمض وقت طويل حتى طلب منه سبيرونوف أن يبدأ في إقامة علاقات مع بعض العناصر المصرية، وحدد له بالذات شخصًا يدعى عبد المقصود فهمي حسن، كان مسئولاً من ناحية الأمن عن مراقبة القنصليات الأجنبية في الإسكندرية، وقال سبيرونوف عنه لسخاروف: عبدالمقصود فهمي ما زال صغيراً، ولكن لا تنس أن الصغير يصبح كبيراً بسرعة.

ونجح سخاروف في التعرف على عبد المقصود فهمي هذا، ودعاه إلى بيته عدة مرات، وإلى حفل استقبال رسمي في القنصلية، وبدأ يقدم له بعض الهدايا مثل الكافيار والفودكا والويسكي بين الحين والحين، وقام سخاروف بتقديم صديقه المصري إلى رئيسه سبيرونوف في إحدى الحفلات المفتعلة لهذه المناسبة في منزل سخاروف، وبعد مرور بضعة أشهر على هذا اللقاء فوجئ سخاروف برئيسه سبيرونوف يطلب منه قطع صلته نهائيًا بعبد المقصود! واكتفى سبيرونوف برد مقتضب، قال فيه: "سوف يفهم هو ويقدر الظروف" وسرعان ما أدرك سخاروف سر قرار رئيسه عندما بدأت تقارير عبدالمقصود حسن المسئول المصري عن أمن القنصليات تصل إليه ليتولى ترجمتها من العربية إلى الروسية، فقد تم تجنيد عبد المقصود فهمي حسن للعمل لحساب المخابرات السوفيتية، وكان أحد المسئولين عن مقاومة المخابرات السوفيتية في الإسكندرية ضابطًا يدعى عبد الهادي السيد، وكجزء من خطة لإغرائه دبرت المخابرات السوفيتية بعثة دراسة لشقيقه في المعهد الزراعي العالي في تبيليس بالاتحاد السوفيتي، وقبل رحيل الطالب إلى معهده بالاتحاد السوفيتي للدراسة التقى به سخاروف الذي تهيأت له الفرصة بالطبع للتعرف على شقيقه عبد الهادي السيد، وبدأت الصلة الاجتماعية تتوثق بينهما بحكم وجود أخيه في بعثته الدراسية بالاتحاد السوفيتي، وبعد أن قام سخاروف بتقديم عبد الهادي إلى سبيرونوف انسحب سخاروف ليتولى رئيسه بنفسه أمر عبد الهادي، كما تولى من قبل أمر عبد المقصود.

وانتقل سخاروف بناء على تعليمات سبيرونوف للبحث عن علاقات جديدة مع موظفين مصريين آخرين بشرط الابتعاد عن الشيوعيين المصريين، فهؤلاء تم إحراقهم، والمطلوب البحث عن عملاء جدد، ولاحظ سخاروف أن سبيرونوف يسيء معاملة الشيوعيين المصريين القدامى، ويتعمد إحراجهم وإهانتهم والسخرية منهم.

حدث هذا مع محمد قريطم الذي كان يتولى إصدار نشرة دورية في الإسكندرية، وكان قد تقدم إلى القنصلية السوفيتية يعرض عليها أن يصدر عدداً خاصًا من نشرته

بمناسبة عيد ميلاد ليـنين بـشرط أن تـشتري القنـصلية 500 نـسخة، ورفـضت القنـصلية طلبه، وإزاء إلحاح قريطم أمر القنصل بطرده مـن المبنـى. وكـان سـخاروف يـسافر إلى القـاهرة مـرتين أو ثلاثـا شـهريًّا لأداء مهـام خاصـة بـسبيرونوف أو لأعمـال خاصـة بالقنصلية. وبعد أن يمر علـى الـسفارة كـان مـن عادتـه قـضاء الليلـة في صـحبة بعـض الأصدقاء، وغالبًا ما كان يتحدث مع اثنين من ضباط المخابرات بالسفارة، هما (جنادي ينيكيف وفانتين بولياكوف)، ومع رجل سوفيتي ضليع في اللغـة العربيـة هـو (سـيرجي أراكليليان) الذي أحبه عبد الناصر حبًّا جمًّا، وعينه مترجمًا خاصًّا له.

وأتاحت له هذه الزيارات الفرصة للتعرف على حقيقة ما يجري من أحداث في المنطقة بعيداً عما تتم إذاعته من أنباء كاذبة عن طريق الدعايات الخادعة، وأسـر إليـه أصـدقاؤه بأن بعض الطيارين السوفيت الذين يقودون طائرات الميج الـتي تحمـل علامـات مـصرية يقتلون في الاشتباكات الجوية مع طائرات الفانتوم الإسرائيلية.

وذات مرة أثناء وجوده في القاهرة وصلت من الصحراء جثتان لاثـنين مـن الطيـارين الروس اللذين أسـقطت طائرتهمـا، ورأى سـخاروف زوجتيهمـا تبكيـان بحرقـة فـوق تابوتيهما، كذلك أبلغه أراكيليان (مترجم عبد الناصر الخاص) عن رحلات سرية سـافر فيها إلى موسكو بصحبة ناصر، كما أبلغه بكثير من تفاصيل المحادثـات الـتي دارت بـين الرئيس المصري وبين قادة الكرملين.

وعلى الرغم مما كان يتصف به سـبيرونوف منـدوب المخـابرات في الإسـكندرية مـن تحفظ وحذر، فقد ذكر سخاروف أن رئيسه كان في بعض الأحيـان لا يـستطيع أن يقـاوم الحافز الذي يدفعه لأن يبهر الآخرين بمعلوماته السرية، وفي أمسية من أمسيات ربيع عام 1969 كان الاثنان يشربان الويسكي الإسكتلندي، وأعرب سخاروف عـن دهـشته، لأن المخابرات السوفيتية لم تفطن للاستعدادات التي أعدتها إسرائيل لشن هجومها في يونيـو 1967، فقال سبيرونوف إن أحداً لا يجهل أن إسرائيل أعـدت عـدتها للحـرب، ولكـن

المهمة الأساسية لأي مندوب سوفيتي تتمثل في التأكد من يوم الحرب بالضبط ومن حقيقة نوايا العدو، فعقب سخاروف قائلاً: لقد تساءلنا في اليمن لماذا لم نفعل ذلك؟، فقاطعة سبيرونوف قائلاً: "كلا لقد كانت لدينا المعلومات وكانت معلومات دقيقة؛ لقد كنا على علم بتاريخ الهجوم وساعته بالضبط، وأرسلنا هذه المعلومات إلى المركز (الرئاسة في موسكو)، ودهشنا لأن المركز لم يبلغ العرب، وربما لم يصدق المصدر أو تطرق إليه الشك في صحته، وربما كان هذا خطأ روتينيًّا في المركز، وربما شيئًا مدبراً فأنا لا أعرف بالضبط".

ومن الطبيعي أن سخاروف قد ثار فضوله من جراء هذا التأكيد بأن المخابرات السوفيتية حصلت على هذه المعلومات بالغة الأهمية وحجبتها عن العرب، وهي معلومات كان يمكن أن تقيهم شر الهزيمة النكراء التي لحقت بهم.

وبعد أقل من أسبوع واحد ثار فضوله أكثر وأكثر عندما سمع خبراً مثيراً من سبيرونوف في أحد اجتماعاته بالعاملين في القنصلية. فقد طرح سخاروف سؤالاً عما إذا كان النفوذ المتزايد على الحكومة المصرية من جانب الصحفي محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام قد تسببت عنه مصاعب للاتحاد السوفيتي. فرد عليه سبيرونوف قائلاً: "لن يحدث ذلك مادام شرف مستمراً حيث هو الآن"، فقال القنصل شوميلوف: "إني لم اسمع عنه من قبل"، فقال سبيرونوف: "إن سامي شرف هو الشخصية الأولى في الحكومة في الواقع، فهو مستشار الرئيس لشئون المعلومات، وهو الرجل الذي ينصت إليه ناصر أكثر مما ينصت لأي رجل آخر، وهو يعتبر من وجهة نظرنا أكبر قوة إيجابية في مصر، فهو القوة التي نعتمد عليها".

وكان سبيرونوف يتحدث بصدق، ولكن حديثه كان يفتقر إلى الحكمة، فقد كان سامي شرف من الأهمية بمكان: بحيث لا يجوز الكشف عنه بهذه الطريقة.

وقد تضمنت الصفحات من 51 إلى 53 من كتاب K.G.B ما يلي: "كان سامي شرف

في ذلك الوقت عميلاً من أهم عملاء المخابرات السوفيتية في العالم كله، فهو يمثل حالة رجل صغير لا شأن له تحول إلى صاحب شأن ونفوذ. لقد كان بمثابة تزكية للأسلوب الذي يتبعه جهاز المخابرات السوفيتية، والذي يتمثل في تجنيد عدد لا يحصى من العملاء على أمل أن بعضهم سوف ينجح بعد سنوات، ولقد كان سامي شرف نموذجًا ممتازًا لإيضاح كيف يمكن لعميل واحد ذي نفوذ أن يغير مجرى التاريخ.

كان سامي شرف يشبه ثمرة الكمثرى الرديئة جداً، وكان مظهره يكذب حدة ذهنه، وميله الغريزي للدسائس، وشخصيته الطموح القوية الشكيمة التي لا تثبط الوساوس عزمها وطاقته غير العادية على العمل، وفيما عدا وصمة الخيانة فليس له نقائص شخصية.

وقد بدأت محاولات المخابرات السوفيتية في التودد إلى سامي شرف سنة 1955 عندما سافر إلى موسكو مع وفد من أوائل الوفود العسكرية المصرية التي ذهبت تطلب المعونة السوفيتية، وبعد ذلك بفترة وجيزة عينه علي صبري مساعداً له، وليس من المعروف ما إذا كان قد اختاره بناء على تحريض من السوفيت أم لا، وسرعان ما أعاد سامي شرف تنظيم مكتب علي صبري، وفي أثناء هذه العملية حصل لنفسه على مزيد من النفوذ، واستطاع أن يكون على اتصال مباشر مع ناصر، وعاد إلى موسكو سنة 1957 مع وفد مصري آخر.

ومرة أخرى حاول جهاز المخابرات السوفيتي التقرب إليه بطريقة ذكية، وقام شرف بزيارة إلى نيويورك سنة 1958 (للتمهيد لزيارة ناصر للأمم المتحدة) والتقى سراً مع فلاديمير سوسليف، وهو ضابط بالمخابرات السوفيتية، ومعين في وظيفة مستشار للوفد السوفيتي بالأمم المتحدة.

وهناك دلائل تحملنا على الاعتقاد بأن سامي شرف أصبح عميلاً يتحكم فيه جهاز المخابرات السوفيتية منذ عام 1958، وبعد هذا العام لم يكن سامي شرف يذكر باسمه

الحقيقي سواء في المركز في موسكو أو في الرسائل الشفرية التي كان الجهاز يبعث بها، وكان الجهاز يشير إليه بالاسم الرمزي المخصص لأمثاله من العملاء، وكان الاسم الرمزي لسامي هو "الأسد".

وبعد أن أصبح سامي شرف كبير مستشاري الرئيس ناصر لشئون المعلومات، نأى بنفسه عن علي صبري، واتخذ الصورة التي رسمها له بدقة جهاز المخابرات السوفيتية ألا وهي صورة الرجل الشديد التحمس للقومية العربية، فراح يقول: "إن الهدف الأسمى أمام مصر في الداخل هو أن تحقق الديمقراطية الاجتماعية، وفي نفس الوقت أن تحقق الهدف الأسمى في سياستها الخارجية، وهو الوحدة العربية التي تؤدي إلى تصدع إسرائيلي". واستطاع بكل وسيلة ممكنة أن يقنع عبد الناصر برأيه بأنه نظراً لاعتبارات سياسية داخلية فإن أمريكا ستذهب إلى أبعد مدى في مساندتها لإسرائيل، وبناء على ذلك فإنه ينبغي على مصر أن تستغل الشرق ضد الغرب، وتحصل على كل ما تستطيع الحصول عليه من روسيا، دون أن تعرض سيادتها للشبهة أو المخاطر.

وبعلم ناصر أو بدون علمه أبرم شرف اتفاقًا سريًّا ينص على القيام بعمليات مشتركة بين مصر وجهاز المخابرات العامة السوفيتية، وعلى أن يتولى السوفيت تدريب ضباط المخابرات المصرية، وبفضل هذا الاتفاق تمكن الروس من زيادة تغلغلهم في الحكومة المصرية عن طريق الضباط الذين يلقنونهم أفكارهم.

كذلك فإن هذا الاتفاق أعطى ذريعة لسامي شرف لكي يلتقي علانية مع فاديم كربتشنكو أكبر ضابط للمخابرات السوفيتية بالقاهرة، وفي أوائل الستينيات كان سامي شرف هو الذي يصدق على جميع تعيينات المصريين في الخارج، وكان يشرف على تحريات الأمن عن موظفي الحكومة، كما كان هو شخصيًّا يتولى إدارة عمليات المخابرات الخارجية التي كان يهتم بها ناصر بصفة خاصة. ولهذا السبب أنشأ في داخل جهاز المخابرات شبكة خاصة من الضباط وظيفتها تقديم التقارير إليه شخصيًّا.

والأهم من ذلك فإنه كان هو الذي يحدد أي التقارير يمكن أن تصل إلى ناصر. كما كان هو الذي يحدد مضمون التقارير اليومية التي كانت ترفع إليه.

وهكذا استطاع جهاز المخابرات السوفيتية عن طريق سامي شرف أن يسيطر على المعلومات التي كان الرئيس المصري يعتمد عليها كل الاعتماد في تكوين أحكامه وفي رسم سياسة البلاد.

وبوصفه أقرب المقربين إلى ناصر حصل سامي شرف سنة 1967 على نفوذ لا يزيد عليه سوى نفوذ الرئيس نفسه، فقد كان سامي هو الذي ينقل أوامر الرئيس إلى الوزراء، وبهذا أصبح أعلى منهم مكانة في واقع الأمر، ولكن أعظم نفوذ له على شئون مصر كان ينبع من نجاحه في إخفاء ولائه الحقيقي، فقد كان ناصر يدرك أن ما يشير به الروس كان يخدم مصالحهم، وقد لا يتفق هذا مع مصالح مصر. كذلك كان يدرك أن كثيرين من المقربين إليه وخصوصًا نائبه علي صبري، ووزير الداخلية شعراوي جمعة، ووزير الحربية محمد فوزي كانوا حلفاء للسوفيت، ولكنه لم يجد سببًا يجعله يشك في رئيس مخابراته المخلص الذي يحظى بثقته سامي شرف، ذلك الرجل الذي كانت المخابرات السوفيتية توجهه دائمًا لأن يظهر بصورة الرجل الوطني الذي لا يهتم إلا بأفضل شيء لمصر.

لقد كان سامي هو الرجل الوحيد الذي كان ناصر يشعر بأنه يستطيع أن يلتمس لديه الرأي السديد. وفي خلال ربيع سنة 1967 الحرج عندما كان ناصر يتخذ قراراته التي ستؤدي إلى الحرب أو السلام قدم له سامي شرف صورة العالم بالشكل الذي تريد منه المخابرات السوفيتية أن يراه.

هذا ما سجله الكاتب الأمريكي "جون بارون" عن قصة تجنيد المخابرات السوفيتية لسامي شرف على لسان العميل السري المزدوج فلاديمير سخاروف.

وسوف نتناول هذه القصة بالتحليل الموضوعي بهدف الوصول إلى الحقيقة.

بلاغ ضد سامي شرف إلى محكمة التاريخ:

كانت العملية الكبرى التي تمكنت المخابرات السوفيتية من تحقيقها بنجاح في مصر إلى الحد الذي جعل المؤلف الأمريكي "جون بارون" يحرص على تسجيل عنوانها على غلاف الكتاب ضمن ثماني عمليات أحرزت فيها المخابرات السوفيتية نجاحًا على المستوى العالمي هي عملية تجنيدها لسامي شرف مستشار عبد الناصر الخاص، وقد أوردها المؤلف في ثلاث صفحات ضمن الفصل الثاني من الكتاب.

هل اتهام سامي شرف بالعمالة صحيح أم باطل؟

وعلى الرغم من أنه لا يمكن لنا الجزم بصفة قاطعة عما إذا كان الاتهام الموجه إلى سامي شرف بالعمالة للمخابرات السوفيتية هو اتهام صحيح أو باطل حيث لا توجد تحت يدنا وثائق أو مستندات تثبت براءته أو إدانته، وليس لدينا سوى ما أورده المؤلف الأمريكي "جون بارون" في كتابه نقلاً عن اعترافات أدلى بها ضابط المخابرات السوفيتي السابق "فلاديمير سخاروف"، فإنه يمكن لنا عن طريق تحليل ذلك الاتهام وملابساته تحليلاً موضوعيًّا أن نتوصل إلى صورة أكثر وضوحًا، وأن نلقي مزيدًا من الضوء على الغموض الذي يحيط بهذا الموضوع، وسوف نتبع في تحليلنا الأسلوب الذي يسهل الأمر على القراء بأن نطرح عددًا من الأسئلة المهمة والحيوية التي تتعلق بموضوع الاتهام الموجه إلى سامي شرف، والتي لا شك أن كثيرًا منها يدور في أذهان القراء، وعن طريق التحليل والمناقشة نأمل أن نتوصل إلى إجابات شافية عن هذه الأسئلة مما قد يزيح الغموض ويكشف الستار عن ذلك السر.

1. هل هناك غرض خفي يكمن وراء توجيه هذا الاتهام إلى سامي شرف؟ قبل أن نجيب عن هذا السؤال يحسن أن نذكِّر القراء بأن معلومات ضابط المخابرات السوفيتي السابق "سخاروف" عن عمالة سامي شرف للمخابرات السوفيتية قد استقاها من رئيسه في العمل في المخابرات وفي القنصلية السوفيتية بالإسكندرية، وهو نائب

القنصل "فكتور سبيرونوف" ، وكان ذلك في مارس 1969 وَفْقًا لرواية المؤلف الأمريكي .

وهذه الحقيقة تقودنا إلى نتيجتين ؛ الأولى أن سبيرونوف لم يذكر هذه القصة لسخاروف لأي غرض معين لأنه لم يكن يعلم وقتئذٍ بأن مرءوسه سخاروف على اتصال بالمخابرات المركزية الأمريكية بدليل استمراره في العمل مع المخابرات السوفيتية لمدة عامين "في مصر والكويت" بعد معرفته بقصة سامي شرف، كما أن "سبيرونوف" ما زال موجوداً حتى الآن في الاتحاد السوفيتي ، والنتيجة الثانية أن (سخاروف) لم يرو القصة التي سمعها من رئيسه عام 1969 إلى المؤلف الأمريكي إلا بعد خمس سنوات من استماعه لها ؛ لأن كتاب "جون بارون" لم يصدر إلا عام 1974 مما يجعل من المحتمل بالطبع نظراً لطول المدة حدوث بعض الأخطاء في ذكرى التفاصيل الخاصة بسامي شرف وتاريخه أو صفاته .

ولكن جوهر الموضوع وهو تجنيد المخابرات السوفيتية لسامي شرف هو الأمر الذي ليس فيه مجال للخلاف أو الخطأ بالنسبة لسخاروف ؛ مهما بعد تاريخ استماعه لهذا الموضوع ، أما بالنسبة لاحتمال صدور الاتهام بدافع شخصي فإن هذا الاحتمال مردود عليه بأن جميع من أسهموا في توجيه هذه التهمة إلى سامي شرف سواء كان المؤلف الأمريكي "جون بارون" أو رئيس المخابرات السوفيتي السابق في الإسكندرية "سبيرونوف" أو العميل السوفيتي الأمريكي "سخاروف" ، ليس لهم أدنى معرفة أو أية صلات سابقة بسامي شرف سواء كانت رسمية بحكم العمل أو صلات شخصية .

وإذا ما طرأ على ذهن أحد فكرة أن تكون المخابرات المركزية الأمريكية وراء هذا الاتهام ، فإن الدافع الوحيد المحتمل بالنسبة إليها في هذه الحالة هو محاولة تحطيم نفوذ سامي شرف وتنحيته عن السلطة حتى يحرم الاتحاد السوفيتي من حليف قوي ذي

سلطة ونفوذ في الحكومة المصرية، ولكن هذا الدافع لم يكن في الإمكان وجوده عند صدور الكتاب عام 1974، ففي هذا الوقت كان سامي شرف سجينًا في سجن مزرعة طره يمضي مدة العقوبة التي أوقعتها عليه الدائرة الأولى لمحكمة الثورة يوم 10 ديسمبر 1971، وهي عقوبة السجن المؤبد؛ أي إنه لم يكن يتمتع بأي نوع من القوة أو النفوذ، ولم تكن له أية صلات وقتئذ بالاتحاد السوفيتي، والخلاصة التي نخرج بها أن اتهام سامي شرف بالعمالة للمخابرات السوفيتية ليس وراءه أي هدف شخصي أو غرض خفي، بل كان بالنسبة للمؤلف الأمريكي "جون بارون" حقيقة مؤكد آمن بها عن ثقة وسجلها في كتابه عن صدق واقتناع.

2. هل كان الغرض من توجيه الاتهام إلى سامي شرف الإساءة إلى العلاقات المصرية السوفيتية؟ إن اتهام سامي شرف بالعمالة للاتحاد السوفيتي لم يكن اتهامًا جديدًا يوجه ضده بحيث يحدث تأثيرًا سيئًا في العلاقات المصرية السوفيتية، فإن الرئيس الراحل السادات طوال الفترة الواقعة بين أحداث 15 مايو 1971 وموعد الكتاب وهو عام 1974 لم يكف سواء في خطبه العامة أو أحاديثه عن ترديد نغمة أن من أسماهم "مراكز القوى" كانوا عملاء للاتحاد السوفيتي، وكان سامي شرف كما يعلم الجميع من أبرز أعضاء هذه المجموعة، وبذا فإن توجيه اتهام جديد لسامي شرف بنفس التهمة التي وجهها إليه السادات منذ عدة سنوات سابقة على صدور الكتاب لا يترك مجالاً لحدوث أية أزمة جديدة في العلاقات المصرية السوفيتية، وفضلاً عن ذلك فقد كانت العلاقات بين البلدين على درجة من السوء وقت صدور الكتاب بحيث لم يكن الأمر محتاجًا إلى محاولة جديدة لدق أسفين في العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتي، فعلى أثر حرب أكتوبر 1973 وبعد محادثات فض الاشتباك بين مصر وإسرائيل، وبعد سلسلة لقاءات السادات وكيسنجر التي بدأت في قصر الطاهرة بالقاهرة يوم 7 نوفمبر 1973، واستمرت بعد ذلك في أُسْوان أصبح واضحًا أن السادات قد نقل جهود السلام في الشرق الأوسط بأكملها إلى يد الولايات

المتحدة، وأن الاتحاد السوفيتي قد أصبح خارج اللعبة. نستخلص من ذلك أن توجيه ذلك الاتهام إلى سامي شرف لم يكن له أي تأثير بالنسبة للعلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتي.

3. لماذا ركزت المخابرات السوفيتية جهودها على سامي شرف بالذات لتجنيده؟ إن المخابرات السوفيتية من الذكاء وبُعد النظر إلى الدرجة التي تجعل من موضوع تجنيدها لكبار المسئولين السياسيين في الدول غير المنحازة التي تدور في فلكها "مثل مصر وقتئذ" أمراً يخضع لاعتبارات دقيقة ومقاييس محدودة وَفْقًا للطريقة التي سنوضحها فيما يلي:

أولاً: ينبغي ألا يكون المسئول السياسي الذي ستقوم بتجنيده معروفًا لدى الرأي العام في بلاده بأنه رجل الاتحاد السوفيتي، أو بأنه شيوعي؛ لأن مثل هؤلاء يعتبرون في عرف المخابرات "محروقين" ولا يمكن استفادة المخابرات السوفيتية بهم مهما علا مركزهم أو بلغ شأنهم.

وأكبر مثال على ذلك هو علي صبري فإن وجود الانطباع لدى الرأي العام المصري بأنه رجل موسكو رقم (1) في مصر، وانتشار الشائعات بأنه شيوعي كل ذلك جعل المخابرات السوفيتية لا تبذل أية محاولات لتجنيده للعمل لحسابها رغم وزنه السياسي الكبير وعلاقته الوثيقة بالاتحاد السوفيتي إلى الحد الذي جعل السادات لا يجرؤ على إصدار القرار بتنحيته يوم 2 مايو 1971 إلا بعد أن استدعى السفير السوفيتي "فلاديمير فينوجرادوف" قبل أن يصدر القرار بحوالي عشرة أيام لإبلاغ القيادة السوفيتية في موسكو بالقرار الذي اعتزم إصداره حتى لا تنزعج القيادة السوفيتية.. على حد قول السادات.. عندما تتحدث صحف الغرب عن تصفية رجل موسكو الأول في مصر.

ثانيًا: ينبغي أن يكون المسئول السياسي المراد تجنيده في موقع أقرب ما يمكن

لرئيس الدولة، مما يتيح الفرصة أمامه ليمد المخابرات السوفيتية بأدق الأسرار السياسية والعسكرية الخاصة ببلاده، وأهم القرارات التي يعتزم رئيس الدولة اتخاذها في المستقبل.

وسر نجاح العميل في هذه الحالة هو قدرته على إخفاء ولائه الحقيقي وظهوره بمظهر الرجل الوطني المتطرف في وطنيته والحريص على مصالح بلاده، مما يجعل رئيس الدولة يوليه ثقته الكاملة، ويفضل أن يلتمس لديه دون كل مستشاريه الرأي السديد، وإذا ما استطاع العميل بحكم موقعه القريب من رئيس الدولة الوصول إلى هذه المكانة وبلوغ هذه الدرجة من الثقة تصبح لديه المقدرة على أن يجعل رئيس الدولة يتخذ أخطر قراراته وَفْقًا للسياسة التي ترسمها القيادة السوفيتية دون أن يدري، وذلك بأن يقدم العميل السوفيتي له صورة الموقفين العالمي والداخلي بالشكل الذي تريد منه المخابرات السوفيتية أن يراه.

وإذا طبقنا الاعتبارين السابقين على المسئولين السياسيين المصريين الذين كانوا في تلك الفترة أقرب ما يكونون إلى الرئيس الراحل عبد الناصر بحكم عملهم، والذين نجحوا في أن يكونوا موضع ثقته، فسوف نجد أن أفضل هؤلاء الأفراد نفعًا للمخابرات السوفيتية.. في حالة نجاحها في تجنيده.. كان بلا شك هو سامي شرف؛ فقد كانت تتوافر فيه جميع الشروط المطلوبة، فلم يكن معروفًا عنه توثق الصلات أو قوة الروابط بينه وبين الاتحاد السوفيتي، ومن جهة أخرى كان من الناحية الواقعية هو السكرتير ورئيس المخابرات الخاص لعبد الناصر بصرف النظر عن المسميات التي كانت تطلق على وظيفته، وكان بلا جدال أكثر معاونيه قربًا منه سواء في الشئون الرسمية أو الخاصة وأشدهم بالتالي تأثيرًا عليه، ولهذه المبررات يكون تركيز المخابرات السوفيتية عليه لمحاولة تجنيده للعمل لحسابها أمرًا طبيعيًّا ومنطقيًّا ليتسنى لها تنفيذ مخططاتها في مصر.

4. لماذا لاذ سامي شرف بالصمت طوال هذه المدة ولم يحاول الرد على أولئك الذين اتهموه بالعمالة؟ لقد وجه الكاتب الأمريكي "جون بارون" إلى سامي شرف أبشع تهمة يمكن أن توجه إلى أي مواطن مصري، وهي تهمة خيانة وطنه والاشتغال بالعمالة لحساب دولة أجنبية، ولقد صدر كتاب (K.G.B) عام 1974، وكان المفترض أن يتصدى سامي شرف لهذا الاتهام بالنفي والتكذيب، إذا كان الاتهام قائمًا على غير أساس، وأن يقوم برفع قضية ضد المؤلف الأمريكي، وضد مؤسسة "ريدرز ديجست" التي قامت بطبع الكتاب مطالبًا بتعويض ضخم بالنسبة لما سببه له نشر الكتاب من إساءة بالغة إلى سمعته وشرفه، وبخاصة أن الاتهام الموجه ضمن الكتاب هو اتهام واضح وصريح وضد شخصه بالذات، وقد تضمن أسماء أشخاص معينين من السوفيت ومن مصر وتواريخ ووقائع محددة يمكن له نفيها بالأدلة القاطعة إذا كانت غير صحيحة، وإذا كنا نلتمس العذر لسامي شرف لعدم قيامه بالتصدي إلى هذا الاتهام بجميع الوسائل الإعلامية والقانونية عام 1974 بسبب تواجده وقتئذ في سجن مزرعة طره، فما الذي منعه من القيام بهذا الواجب عقب الإفراج عنه إفراجًا صحيًّا منذ سنوات عديدة، بعد أن تقدم للرئيس الراحل السادات بعدة التماسات للعفو عنه، وبصرف النظر عن الإجراءات القانونية التي كان المفترض أن يتخذها عقب إطلاق سراحه ضد المؤلف ودار النشر الأمريكية، فقد كان المنتظر منه أن يقوم بإصدار نفي أو تكذيب أو توضيح للقراء المصريين والعرب بشأن تلك التهمة النكراء التي أضحت تحاصره من كل جانب، وبخاصة أن كتاب (K.G.B) كتاب متداول في مصر والبلاد العربية، وقد وزعت منه آلاف النسخ.

وإذا كان سامي شرف لم يسمع عن هذا الكتاب الأمريكي الشهير طوال السنوات العديدة الماضية، فهل تراه لم يسمع عن الكتاب المصري "الروس قادمون" الذي قام بتأليفه الكاتب الصحفي المعروف "إبراهيم سعده"، والذي صدر عام 1976؟ وقد حوى هذا الكتاب فصلاً كاملاً بعنوان عملاء السوفيت تضمن قصة عمالة سامي شرف لحساب المخابرات السوفيتية.

وإذا كان سامي شرف يؤمن بالحكمة التي تقول بأنه إذا كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب، فإن النصيحة التي نوجهها إليه هي أن هذه الحكمة لا تنطبق على الحالات التي يوجه فيها الاتهام إلى شخص ما بخيانة وطنه، وبأنه عميل لدولة أجنبية؛ لأن السكوت في هذه الحالة معناه تأييد هذا الاتهام الشائن.

قصة اللقاء بين بريجينيف وسامي شرف:

أورد المؤلف الأمريكي "جون بارون" في الصفحتين 58 و59 من كتابه ضمن الفصل الثاني معلومات هامة عن لقاء سري جرى بين المخابرات السوفيتية وسامي شرف في موسكو في منتصف أبريل 1971، وفيما يلي الترجمة الكاملة لأحداث هذا اللقاء:

"في حوالي منتصف أبريل 1971 غادرت موسكو إلى القاهرة بعثة مصرية على مستوى عال بعد حضورها مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي رقم 24، وقد تخلف واحد من أعضاء هذه البعثة وهو سامي شرف لإجراء فحص طبي كما أعلن وقتئذ، وواقع الأمر أن سامي شرف بقي وحده هناك للتشاور مع المخابرات السوفيتية لتدبير انقلاب عسكري يستهدف الإطاحة بالسادات وإحلال الطبقة الجديدة من الحكام المصريين الموالين للسوفيت مكانه، ولكن السادات علم بالمؤامرة وقضى عليها، وقبض على سامي شرف وباقي المتآمرين".

ونظراً لأن المعلومات السابقة تشير إلى أحداث حقيقية، وكان لها تأثير سياسي كبير على العلاقات المصرية السوفيتية، كما كان لها شأن خاص أثناء المحاكمات التي جرت أمام محكمة الثورة بعد أحداث 15 مايو 1971 فضلاً عما تثيره الملابسات التي أحاطت بها من شبهات بالنسبة لموقف سامي شرف. لذلك سوف نروي للقراء أحداث القصة كاملة عسى أن تساعدنا على إزالة الغموض، وإلقاء الضوء على حقيقة الدور الذي قام به سامي شرف في هذا الشأن.

في ربيع عام 1971 كان السادات حريصًا على اتخاذ خطوات لتحسين العلاقات بينه وبين القادة السوفيت لمحاولة إزالة الشكوك التي ساورتهم بشأنه بعد الأنباء التي بلغتهم عن الاتصالات السرية التي كان يقوم بها وقتئذ مع المسئولين الأمريكيين في واشنطن لحل مشكلة النزاع العربي الإسرائيلي حلاً سلمياً، وبعد الصدمة التي أحسوا بها عقب إعلان السادات فجأة أمام مجلس الأمة عن مبادرته للسلام في 4 فبراير 1971 دون التشاور معهم أو مع أصدقائهم في القيادة السياسية في مصر، ولهذا الغرض أرسل السادات في 31 مارس 1971 وفداً مصرياً كبيراً إلى موسكو بمناسبة انعقاد مؤتمر الحزب الشيوعي السوفيتي، وجعل على رأس الوفد عبد المحسن أبو النور الأمين العام للاتحاد الاشتراكي، وسامي شرف وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية، وكان الاثنان يعتبران وقتئذ من بين أصدقاء السوفيت في القيادة السياسية المصرية، وعقب حضور الوفد المصري اجتماعات المؤتمر السوفيتي الكبير في موسكو عاد الوفد المصري إلى القاهرة برئاسة عبد المحسن أبو النور بينما بقى سامي شرف وحده فترة من الوقت في مصحة قرب موسكو لعمل بعض التحاليل الطبية، ونظراً لأنه كان يحمل رسالة شخصية من السادات فقد ألح سامي شرف في طلب مقابلة الرئيس السوفيتي قبل عودته إلى مصر.

وخلال المقابلة التي دامت نحو الساعة أنبأ سامي شرف بريجينيف بما أثار سخريته، وهو أن عبد الناصر وهو على فراش الموت قد كلفه شخصياً بمهمة الحفاظ على روابط الصداقة بين مصر والاتحاد السوفيتي، ثم مضى يشرح لبريجنيف باستفاضة أسباب الخلاف بين المجموعة التي يمثلها، والتي كان يسميها جماعتنا وبين السادات الذي انحرف في اعتقادها عن الخط الناصري واتجاه الاشتراكية، وأصبحت جهوده منصرفة إلى التقارب مع الأمريكيين، وأخبر سامي بريجينيف أنه سبق أن أبلغ كل هذه المعلومات إلى السفير السوفيتي في القاهرة "فلاديمير فينوجرادوف" وأنه على ثقة من أن السفير ينقل كل أحاديثه إلى القيادة السوفيتية في موسكو، ليطلعهم على حقيقة السادات، وقد أثير موضوع اللقاء الذي جرى بين بريجينيف وسامي شرف خلال المحاكمات التي جرت

أمام الدائرة الأولى لمحكمة الثورة بشكل لم يكن متوقعًا فقد اتضح أن سامي شرف خلال المرحلة الأولى من التحقيق كتب خطابين إلى الرئيس الراحل السادات عبر فيهما عن أسفه وندمه الشديدين على كل ما ارتكبه من أعمال وتصرفات مضادة للرئيس، والتمس منه في النهاية الصفح والغفران.

والذي يهمنا هو أن سامي شرف سجل في خطابه الأول الموجه للرئيس بعض التفاصيل التي لم تكن معروفة من قبل عن لقائه مع الرئيس السوفيتي "بريجنيف" في موسكو، وخلاصتها أن الرئيس السوفيتي ذكر لسامي شرف خلال المقابلة التي تمت بالكرملين أن القيادة السوفيتية نظراً للشكوك التي أصبحت تساورها لا يمكنها الثقة في الرئيس المصري أنور السادات؛ لأنه يعمل على تصفية ثورة عبد الناصر وإضاعة مكاسب الثورة، وأكد سامي في خطابه أن ما سمعه من الرئيس السوفيتي أدى إلى اهتزاز أعصابه وقتئذ وجعله في حالة انعدام وزن لاعتقاده أن الاتحاد السوفيتي نظراً لعدم ثقة قادته في السادات سوف يمتنع عن تزويد مصر بما تنتظره من مساعدات عسكرية واقتصادية، مما يجعل الأمل مفقوداً في قدرة مصر على تحرير أرضها المحتلة عقب حرب يونيو 1967، وأن هذا الاعتقاد كان هو السبب الذي أدى إلى سلوك سامي شرف ذلك المسلك المعادي للسادات.

وقد تم عرض صورة الخطابين أثناء المحاكمة بعد أن أقر سامي شرف أمام المحكمة أن الخطابين قد كتبهما بخط يده، وبدون أي ضغط عليه، ولكن المحكمة بتوجيه من السادات حذفت من صورة الخطاب الأول كل ما سجله سامي شرف من معلومات عن لقائه مع الرئيس السوفيتي بريجينيف في موسكو، باعتبار أن ما يحويه الجزء الذي تم حذفه فيه مساس بدولة أجنبية، وقد تم لهيئة الدفاع عن المتهمين الإطلاع على صورة الخطابين، ولكن بدون الفقرات التي تم حذفها من الخطاب الأول.

وفضلاً عن ذلك تم ضبط أحد أشرطة التسجيل بعد أحداث 15 مايو في مكتب سامي

شرف، وكان الشريط يضم تسجيلاً كاملاً لمقابلة تمت بين سامي شرف والسفير السوفيتي بالقاهرة "فلاديمير فينوجرادف" في النصف الثاني من أبريل عام 1971 عقب عودة سامي شرف من موسكو، وقد كرّر له نفس عبارة الرئيس السوفيتي عن عدم ثقة القيادة السوفيتية في السادات.

ويبدو أن السفير السوفيتي كانت لديه فكرة سابقة عن هواية سامي شرف العجيبة في تسجيل اللقاءات والأحاديث التليفونية التي يجريها مع الآخرين؛ ولذا لم يتكلم سوى دقيقتين فقط طوال فترة المقابلة التي استغرقت 50 دقيقة، أما باقي المدة فقد انفرد فيها سامي شرف بثرثرته المعتادة في توجيه النقد إلى سياسة السادات وتصرفاته والتهجم عليه، وبخاصة فيما يتعلق باتصالاته مع الولايات المتحدة، ونتيجة لمعرفة السادات بما ذكره سامي شرف عن العبارة التي قالها بريجينيف، خلال لقائه مع سامي في موسكو، من جهة عدم ثقة القيادة السوفيتية في السادات، والتي أوردها سامي في خطابه الموجه للرئيس مما ترتب عليه غضب السادات من بريجنيف، ولذلك انتهز السادات فرصة زيارته للاتحاد السوفيتي في أكتوبر 1971 ليعاتب الرئيس السوفيتي عتابًا شديداً في أول لقاء تم بينهما خلال هذه الزيارة، ولكن بريجينيف كذب بشدة أقوال سامي شرف وأنكر أنه أدلى بهذه العبارة وأكد السادات أنه يوجد محضر رسمي للجلسة عند بودجورني، وأنه يمكن الإطلاع عليه إذا شاء، وقال: "حينما طلب سامي شرف مقابلتي كنت مشغولاً جداً، لكني قابلته عندما أخبروني أنه يحمل رسالة لي من الرئيس السادات، أذكر أنه قال إنه كان واحداً من مساعدي عبد الناصر، وأنه الآن أحد مساعدي السادات، وما كان ليخطر على بالي أن مبعوث السادات يمكن أن يكون عدواً للسادات، إننا ليست لنا صلة على الإطلاق بما يمكن أن يقوله هؤلاء الناس، لقد قيل لنا إن بعض من يحاكمون قالوا إن الاتحاد السوفيتي كان يعلم بنواياهم، ولكني أستطيع أن أؤكد لك أن هذا ليس صحيحًا"، وبالإضافة إلى ما أورده سامي شرف في خطابه إلى السادات بشأن لقائه مع بريجينيف سجل في أقواله بالتحقيق أخطر شهادة ضد صديقيه

الحميمين وزميليه في الجماعة الثلاثية شعراوي جمعة والفريق أول محمد فوزي "ابن خالة زوجته" إذ ذكر ما يثبت تفكيرهما الجدي في تدبير انقلاب عسكري للإطاحة بالسادات، وتكوين مجلس رئاسة لحكم البلاد يرأسه محمد فوزي ويشترك فيه أعضاء اللجنة التنفيذية العليا، وقد حوكم الفريق أول محمد فوزي أمام الدائرة الثانية لمحكمة الثورة برئاسة الفريق عبد القادر حسن، وكانت إحدى التهم الثلاث الموجهة ضده هي محاولة قلب نظام الحكم بالاشتراك مع شعراوي جمعة وسامي شرف وآخرين، وقد ثبتت إدانته في هذه التهمة، وكذا في التهم الأخرى الموجهة إليه.

إن الملابسات التي أحاطت بتخلف سامي شرف عن العودة مع الوفد المصري إلى القاهرة بعد انتهاء المهمة التي قدم من أجلها إلى موسكو بحجة عمل فحوص أو تحاليل طبية هي أمر يثير الشكوك والشبهات، وبخاصة أنه نجح في إقناع السادات قبل السفر بأن يحمل هو رسالته الشخصية إلى بريجينيف، بدلاً من أن يحملها عبد المحسن أبو النور الذي كان في الواقع هو الأول والأجدر بحملها بحكم أقدميته ورئاسته للوفد فضلاً عن أن الوفد المصري كان يحضر في مناسبة حزبية، وهي انعقاد مؤتمر الحزب الشيوعي بموسكو، وكان هو وقتئذ الأمين العام للاتحاد الاشتراكي؛ أي يقوم بتمثيل الحزب الوحيد في مصر في ذلك الوقت.

ومن الواضح أن سامي شرف قد تخلف عن العودة مع زملائه إلى القاهرة لغرض في نفسه بعد أن تحجج بموضوع الفحوص الطبية، وقد يكون هذا الغرض هو رغبته في لقاء بريجينيف بمفرده دون أن يرافقه عبد المحسن أبو النور في هذا اللقاء كما كان المفترض، وقد يكون السبب هو ما أورده "جون بارون" في كتابه عن التقاء مندوبي المخابرات السوفيتية به سراً لتدبير انقلاب عسكري للإطاحة بالسادات، ولا شك في تأثير هذه الظروف والملابسات المريبة التي أحاطت بتخلف سامي شرف في موسكو، ومقابلته مع الرئيس السوفيتي بريجينيف التي أحاط بها كثير من الشكوك ثم أحداث 15 مايو 1971 في مصر التي أعقبتها المحاكمات أمام محكمة الثورة، وإدانة الفريق أول محمد فوزي بتهمة

محاولة قلب نظام الحكم بالاشتراك مع شعراوي وسامي، وكانت أخطر الشهادات التي كانت سببًا في ثبوت هذه التهمة ضده هي الشهادة التي سجلها سامي شرف ضمن الخطابين اللذين بعث بهما إلى الرئيس الراحل أنور السادات، والذين أودعا في ملف الدعوى.

وكانت شهادته اعترافًا صريحًا منه بالأحاديث التي كانت تدور في حضوره بين زميليه محمد فوزي وشعراوي جمعة من أجل القيام بانقلاب عسكري، وقد كشف الستار عن ذلك السر المدعي العام الاشتراكي خلال مرافعته أمام الدائرة الثانية لمحكمة الثورة في أواخر أكتوبر عام 1971 كما سوف يتضح بجلاء في الفصل الرابع من هذا الكتاب ولاشك أن كل هذه الأحداث والملابسات تجعلنا لا نستطيع أن نستبعد أن يكون معظم ما ذكره المؤلف الأمريكي "جون بارون" عن هذا الموضوع صحيحًا.

إن الواجب يحتم علينا في ختام بحثنًا أن نناشد سامي شرف أن يبعث إلينا بوجهة نظره ويبدى دفاعه عن هذه التهمة النكراء التي وجهت ضده منذ زمن بعيد، والتي لم يقابلها إلا بالسكوت المشبوه والصمت المريب، وسوف نكون أسعد الناس لو استطاع أن يدحض هذه التهمة الشائنة التي وصمه بها الكاتب الأمريكي "جون بارون"، وبخاصة أن الجميع يعلمون أنه كان أكثر معاوني الرئيس الراحل عبد الناصر قربًا منه، مما يجعل هذا الاتهام مأساة كبرى بالنسبة لمصر، وأود أن يعلم سامي أن هناك محكمة كبرى لا يمكن له أن ينجو من الوقوف أمامها إلى أبد الدهر تلك هي محكمة التاريخ التي تذل الجبابرة والطغاة، وتفضح الظالمين والبغاة، وتكشف العملاء والخونة، وتنصف الأبطال والأحرار، والويل لمن استهان بأحكام هذه المحكمة وظن أنها قاصرة عن كشفه، أو عاجزة عن إدانته مهما طال الزمن.

ماذا روى السادات عن اجتماع بريجينيف وسامي شرف؟

لا تزال حقيقة ما دار خلال الاجتماع الخاص الذي عقد في الكرملين بالعاصمة

السوفيتية ما بين الرئيس السوفيتي بريجينيف وسامي شرف وزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية وقتئذ، والذي تم في حوالي منتصف إبريل 1971 تثير كثيراً من التساؤلات وعلامات الاستفهام ـ وفضلاً عما ذكرناه من قبل عما دار خلال هذا الاجتماع ـ فإننا ننقل فيما يلي نص ما ذكره الرئيس الراحل أنور السادات بشأن هذا الموضوع.

في 14 مارس 1976 وفي الخطاب المهم الذي ألقاه السادات في الجلسة الخاصة لمجلس الشعب تعرض لأمر اللقاء المذكور الذي تم في موسكو، كما تعرض لموضوع الخطاب الذي أرسله إليه سامي شرف وهو في السجن، خلال التحقيق معه في قضية 15 مايو 1971 فذكر ما يلي بالحرف الواحد:

"أنا عايز أرجع بيكم للخلف شوية أنا حودع لدى رئيس المجلس هنا جواب كتبهولي واحد من اللي في السجن النهاردة سامي شرف ويستعطفني فيه ويقرر بخط يده.. ودخل الجواب التحقيق.. إنه منذ سنة 1971 ورأى بريجينيف اللي قالوا لسامي شرف شخصيًا لما بعثته في مهمة في موسكو هو إن السادات بيصفي الثورة بتاعة عبدالناصر ده في سنة 1971، وطلبت من المدعي الاشتراكي أن هذا الجزء لا يعلن ولا يدخل للمحامين ولا للتحقيق حفاظًا على الثورة. هو من سنة 1971 العملية مش عجباه هنا خالص لأنه كان في ترتيب آخر وعشان كده قعدت سنتين ثلاثة أطلب منهم المعاهدة رفضوا، دنا حاحكي القصة حاقولها وهمَّ بيبكو على عبد الناصر، ومن سنة 1971 لما بعت سامي شرف موسكو مع وفد قام رجعوا الوفد واحتجزوا سامي شرف قالوا ده في العلاج جه سامي شرف، وفي مايو لما اتمسكم راح كاتب بخط يده جواب افتكر حاييجي خارج نطاق التحقيق فأنا بكل بساطة وديت الجواب للتحقيق بيقول في هذا الجواب إنه كان في حالة انعدام وزن وإنه وهو في موسكو قابله بريجينيف وقال له إن السادات بيصفي الثورة وأنا أعلم إيه اللي تم في هذه المقابلة ويمكن الكتاب اللي طلع أخيراً عن العملاء السوفيت (يقصد كتاب K.G.B تأليف: جون بارون) وعن دور سامي شرف يوضح هذا الكلام".

وفي 27 مـارس 1976 وفي خطـاب ألقـاه الـسادات أمـام اللجنـة المركزيـة للاتحـاد الاشتراكي تعرض لنفس الموضوع السابق فذكر ما يلي بالحرف الواحـد ردًا علـى تعليـق لأحد أعضاء اللجنة :

" وزي ما سمعتني قدام المجلس لما بعثت رسول واحـد مـن مراكـز القـوى زمـان . . سامي شرف . . برسالة لبريجينيف وكان لسة بقالي شهور رئيس قام قال له ده الكـلام ده وارد في جواب بخط سامي شرف قدمه لـي فبعثتـه لأنـه بخطـه ودخلتـه التحقيـق وقلـت أبعدوا الاتحاد السوفيتي مـن الكـلام اللـي نـسبه سـامي لبريجينيـف . بريجينيـف قـال لـه السادات بيضيع مكاسب الثورة . كلام بريجينيف في المؤتمر الشهر اللي فـات إننـا بنـضيع مكاسب الثورة " .

هذا وقد كان المفترض وَفْقًا للأصول والأعراف المتبعة في مثل هذه اللقاءات السياسية أن يقدم سامي شرف بمجرد عودته إلى القاهرة تقريراً شاملاً إلى السادات يتضمن جميع مـا دار خلال هذا اللقاء بينه وبين الـرئيس الـسوفيتي أو باصـطلاح آخـر المحـضر الرسمـي للاجتماع ، وبخاصة أن سامي لم يقابل بريجينيف إلا بـصفته منـدوبًا خاصًـا للـسادات ، ويحمل رسالة شخصية منه إلى الرئيس السوفيتي ، ولكن الأمر الذي يمكـن اسـتنتاجه ممـا جرى أن سامي شرف إما أنه أغفل تقـديم مثـل هـذا التقريـر ، وهـو تـصرف يـدعو إلى الدهشة ، وإما أنه قدمه ولكنه تعمـد إخفـاء بعـض الوقـائع المهمـة الـتي جـرت خـلال الاجتماع ، وهو تصرف يدعو إلى إثارة الشكوك في حقيقة الـصلات الـتي كانـت قائمـة وقتئذ بينه وبين القيادة السوفيتية ، ولـيس أدلّ علـى ذلـك مـن أن الـسادات قـد ذكـر في خطابيه أمام مجلس الشعب واللجنة المركزيـة أنـه لم يعلـم بـرأي بريجينيـف فيـه إلا مـن خطاب الاستعطاف الذي أرسله سامي شرف إليه أثناء وجوده في السجن رهن التحقيـق في قضية 15 مايو 1971 ، والذي اعترف فيه بوقائع جرت أثناء اجتماعه مع بريجينيـف لم يسبق له إبلاغ السادات عنها ، مما يكشف بجلاء عن سوء نيته وعن مدى الـشبهات الـتي تحيط بعلاقاته مع السوفيت .

وبالإضافة إلى ما رواه السادات عن هذه المقابلة نقلاً عن خطاب سامي شرف إليه، فلقد روى الصحفي المعروف محمد حسنين هيكل في الصفحة 137 من كتابه "الطريق إلى رمضان" النسخة الإنجليزية طبعة لندن 1975 تفاصيل أخرى عما دار خلالها، ومن بينها قصة طريفة لا نرى بأسًا من أن ننقلها للقراء وبخاصة أن حسنين هيكل قد ذكر عند روايته لها أن السفير السوفيتي بالقاهرة "فيلاديمير فينوجرادوف" قد أكد له وقوعها، وفيما يلي ترجمة لها نقلاً عن الإنجليزية:

"لقد طلب سامي شرف مقابلة خاصة مع بريجينيف، وخلال المقابلة ذكر سامي للقائد السوفيتي أن عبد الناصر وهو على فراش الموت قد كلفه بمسئولية الحفاظ على روابط الصداقة بين مصر والاتحاد السوفيتي ونظر بريجينيف إليه وقال: "حسنا.. دعني إذن أصفعك" ودهش سامي شرف وقال: "ولماذا تريد أن تصفعني أيها الرئيس" عندئذ شرع بريجينيف في ذكر إحدى نوادره التي اشتهر بها فقال ألا تعلم قصة الفلاح الروسي الذي وهو على فراش الموت جعل ابنه يعده بأن يحافظ على فازة الأسرة الأثرية التي كانت تعد رمزاً للحظ الحسن للأسرة، لقد سأل ابنه إذا كان يقبل تحمل المسئولية في حالة تحطيم الفازة وعندما رد الابن بالإيجاب قال له الأب: "إذن سوف أصفعك" وبادر بالفعل بصفعه، وعندئذ سأل الابن أبان: "لماذا صفعتني وأنا لم أكسر الفازة؟" فأجاب الأب: "أنا أصفعك الآن حتى تتذكر ذلك دائمًا، إذ ما فائدة صفعك بعد تحطيم الفازة؟" ولكني أشك في أن سامي شرف قد فهم مغزى القصة" انتهت رواية محمد حسنين هيكل.

هل الأنسب تقديم بلاغنا ضد سامي شرف إلى محكمة التاريخ أو إلى النائب العام:

منذ صدور كتاب (K.G.B) عام 1974 لمؤلفه الكاتب الأمريكي "جون بارون" والذي ورد فيه أن سامي شرف وزير شئون رئاسة الجمهورية ومستشار عبد الناصر الخاص كان عميلاً للمخابرات السوفيتية، والتي لم تكف الصحف ووسائل النشر في

مصر والخارج عن نشر تفاصيل قصة اتهامه بالعمالة أو الإشارة والتلميح إليها في شتى الظروف والمناسبات، ووصل الأمر إلى حد إثارة هذا الاتهام في سؤال وجهه أحد أعضاء مجلس الشعب إلى ممدوح سالم رئيس الوزراء مصر وقتئذٍ في فبراير عام 1976، وفضلاً عن ذلك فإن الرئيس الراحل السادات وهو رئيس جمهورية مصر وجه هذا الاتهام في صراحة ووضوح إلى سامي شرف كما رأينا في الخطاب الذي ألقاه أمام مجلس الشعب يوم 14 مارس 1976 والذي كانت إحدى فقراته "في مايو لما اتمسكم راح سامي شرف كاتب بخط يده جواب بيقول فيه إنه كان في حالة انعدام وزن وأنه وهو في موسكو قابله بريجينيف وقال له: إن السادات بيصفي الثورة وأنا أعلم إيه اللي تم في هذه المقابلة، ويمكن الكتاب اللي طلع أخيراً عن العملاء السوفيت وعن دور سامي شرف يوضح هذا الكلام"، ومما يدعو إلى الدهشة والتعجب إنه رغم توجيه الاتهام إلى سامي شرف بالعمالة للسوفيت على هذا النطاق الواسع في مصر والخارج منذ أحد عشر عامًا إلى حد توجيهه من رئيس الجمهورية ذاته؛ فإن سامي شرف لم يتعرض لهذا الموضوع مطلقًا، سواء بإصدار نفي أو تكذيب أو توضيح كي يعرف الناس حقيقة موقفه من هذا الاتهام الشائن الذي أصبح يحاصره من كل جانب، ولا شك في أن صمته وامتناعه عن الرد والإيضاح قد ساعد على اقتناع الناس بصحة هذا الاتهام، وفي أن يعتبره الكثيرون في مصر والخارج بمثابة حقيقة مؤكدة، وهو المر الذي يجعلنا نشعر بالأسف وخيبة الأمل؛ إذ إن الجميع يعلمون أنه كان أكثر معاوني الرئيس الراحل عبد الناصر قربًا منه؛ مما يجعل هذا الاتهام مأساة كبرى بالنسبة للشعب المصري المعروف بوطنيته الحقة وإيمانه الراسخ، وسوف نورد فيما يلي بعض ما نشر في مصر والخارج بشأن هذا الموضوع وَفْقًا للترتيب التاريخي:

1. في 16 يناير 1976 وفي العدد 2678 من مجلة "المصور" وفي مقالة أحد هذا العدد التي كانت إحدى حلقات مسلسل تنشره المجلة بعنوان "قصة ثوار يوليو" بقلم كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة، ورد في المقال ما يلي بالحرف:

"كانت المناقشات تدور حول أسباب الانفصال بين "مصر وسوريا" وكان كل منا يدلي برأيه، وجاء دور الأخ بغدادي، وأبدى رأيه متعارضًا مع رأي الرئيس عبدالناصر في تكوين اللجنة التحضيرية، والبغدادي يريد أن تكون بالانتخاب وعلق عبد الناصر تعليقًا اعتبره البغدادي مهينًا له ،أسر إليَّ بذلك، وأنه ينوي الاستقالة فأوضحت لعبد الناصر أنه يجب أن نجتمع ونسوّي المسألة، واجتمعنا في القناطر، وفي أثناء المناقشة قال عبد الناصر: "انتو فاكرين الدنيا واقعة! الدنيا مش واقعة ولا حاجة، البلد دي يحكمها سامي شرف"، وكانت صدمة وصحت مستنكراً "لا.. احنا مفيناش واحد ندل لما تكون الدنيا واقعة ياخد بعضه ويمشي، احنا رجالة ووقت اللزوم نقف ونقاتل" وأخيراً سويت المسألة، وبقيت جملة الرئيس عبد الناصر التي قيّم بها مصر وطريقة حكمها تطن في أذني، والغريب أن سامي شرف قد تمكن من حكم مصر بعد ذلك، والأغرب أن نسمع أنه كان عميلاً للاتحاد السوفيتي".

2. في أوائل فبراير 1976 نشرت جميع الصحف المصرية تحت عناوين بارزة ما يلي: "تقدم المهندس السعدي عبد الحميد السعدي عضو مجلس الشعب عن دائرة "العدوة" بسؤال إلى رئيس الوزراء ممدوح سالم عن الإجراءات التي اتخذتها الحكومة للتثبت من صحة المعلومات التي نشرت من أن سامي شرف الذي شغل فترة طويلة منصب سكرتير رئيس الجمهورية للمعلومات، ومنصب الوزارة في عهد الرئيس الراحل عبد الناصر.. كان جاسوسًا للسوفيت وقد حدد السيد مرعي رئيس المجلس يوم 7 فبراير لمناقشة السؤال".

وفي عدد مجلة "آخر ساعة" الصادر في 5 مايو 1976 نشرت المجلة صورة بالزنكوجراف لإحدى صفحات كتاب (K.G.B) تأليف "جون بارون"، ونشرت تحتها بخط كبير العنوان التالي: "السعدي: عضو مجلس الشعب لماذا قدم سؤاله عن سامي شرف" وسجلت المجلة حديثًا للمهندس الزراعي السعدي عبد الحميد السعدي عضو مجلس الشعب ذكر فيه أنه قرأ مصادفة اعترافات "سخاروف" عميل

المخابرات السوفيتية في الشرق الأوسط، وهي الاعترافات التي نشرها "جون بارون" رئيس تحرير مجلة "ريدرز دايجست" في كتابه عن دور المخابرات السوفيتية في العالم، وقد انزعج كثيراً كمواطن قبل أن يكون عضواً في مجلس الشعب لما جاء في هذه الاعترافات من أن المخابرات السوفيتية قامت بتجنيد سامي شرف للعمل لحسابها؛ لأنه لو صحت هذه الاعترافات فإن هذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا، وهو أن الكثير من أسرار الدولة كانت تتسرب أولاً بأول إلى الاتحاد السوفيتي على مدى 16 سنة كاملة من عمل سامي شرف في موقع من أخطر مواقع المسئولية في الدولة.

ومن مراجعة مضبطة مجلس الشعب يوم 7 فبراير 1976 اتضح أن جدول أعمال الجلسة التي عقدت صباح ذلك اليوم كان يتضمن بالفعل السؤال الذي تقدم به عضو المجلس إلى رئيس الوزراء، ولكن ورد في المضبطة أنه تقرر تأجيل نظر السؤال لتغيب العضو عن الجلسة، ورغم أن الصحف المصرية الصادرة في أول مايو 1976 نشرت أن ممدوح سالم رئيس الوزراء سوف يجيب عن السؤال المقدم إليه في جلسات مجلس الشعب التي تبدأ في 3 مايو 1976 فإن الأمر الذي يبعث على التساؤل أنه اتضح من مراجعة مضابط المجلس أن رئيس الوزراء لم يجب قط عن هذا السؤال الخطير الذي تقدم به المهندس السعدي عبد الحميد السعدي عضو المجلس، كما أن العضو نفسه لم يطلب من رئيس الوزراء بعد ذلك الإجابة عن سؤاله، ولا شك أن قصة تغيب عضو المجلس عن حضور الجلسة التي تحددت للإجابة عن سؤاله، والذي أدى إلى تأجيل مناقشته، ثم حرص كل من رئيس الوزراء والنائب مقدم السؤال على تجنب إثارة الموضوع من جديد أمام مجلس الشعب عقب تأجيل مناقشته في جلسة 7 فبراير لهو أمر يبعث على الاعتقاد بأن ثمة عوامل سياسية قد تدخلت في هذا الشأن لمنع الحرج عن رئيس الوزراء في حالة طرح هذا السؤال لمناقشة عامة أمام مجلس الشعب حرصًا على عدم إساءة العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتي.

3. في 18 مارس 1976 نشرت "جريدة الجمهورية" مقالاً مطولاً عن قصة عمالة سامي شرف للمخابرات السوفيتية تحت عناوين كبيرة مثيرة كان أهمها: "اعترافات خطيرة لمدير التدريب بالمخابرات السوفيتية الذي هرب إلى الغرب". "سامي شرف كان أهم عميل للسوفيت". "كيف رسمت المخابرات السوفيتية لسامي شرف الشخصية التي خدع بها جمال عبد الناصر؟"، وأشارت جريدة الجمهورية في صدر مقالها على المعلومات الخطيرة التي أذاعها الرئيس السادات ضمن خطابه أمام مجلس الشعب في 14 مارس 1976 عن الكتاب الذي صدر أخيراً عن العملاء السوفيت وعن دور سامي شرف، وذكرت الجمهورية أنها تقدم اليوم لأول مرة في الصحافة المصرية نص الاعترافات التي أدلى بها "سخاروف" مدير التدريب بالمخابرات السوفيتية، والذي لجأ أخيراً إلى الغرب، والتي نشرت في كتاب "إدارة المخابرات السوفيتية والأعمال السرية للعملاء السوفيت" تأليف: "جون بارون".

4. في عام 1976 قام المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر بإصدار كتاب بعنوان "الروس قادمون" من تأليف الكاتب الصحفي المعروف "إبراهيم سعده" وقد حوى هذا الكتاب فصلاً كاملاً بعنوان: عملاء السوفيت تضمن قصة عمالة سامي شرف لحساب المخابرات السوفيتية، وقد قامت دار النشر الذي تولت إصدار الكتاب بتدوين فقرة خطيرة عن سامي شرف على الغلاف الخلفي للكتاب ننشر فيما يلي نصها بالحرف:

"هذا الكتاب.. جاء في هذا الكتاب أن سامي شرف كان أخطر وأهم عملاء المخابرات السوفيتية في مصر. جاء هذا في الاعترافات المثيرة التي أدلى بها رجل المخابرات السوفيتي "فيلاديمير سخاروف" عن نشاطه السري في العالم العربي، كانت المخابرات السوفيتية تتعامل مع سامي شرف باعتباره أهم شخصية في مصر، فقد كان يشغل منصب المستشار الخاص للرئيس الراحل جمال عبد الناصر لشئون المعلومات. فقد كان يقرأ كل كلمة يكتبها عبد الناصر، وكان يستمع إلى كل حديث

يجريه عبد الناصر، وكان الرئيس السابق يثق في سامي شرف بلا حدود، ويأخذ رأيه في كل مشكلة كبيرة أو صغيرة تتعلق بأمر من أمور الدولة، ولهذا السبب كانت المخابرات السوفيتية تعتمد اعتماداً كاملاً على سامي شرف ولسنوات طويلة ماضية كما ذكر "سخاروف" في اعترافاته المثيرة، وبعد أن لجأ إلى الولايات المتحدة الأمريكية هرباً من الاتحاد السوفيتي، وقصة سامي شرف مع المخابرات السوفيتية ليست القصة الوحيدة التي ذكرها "إبراهيم سعده" في الفصل الخاص بعملاء السوفيت في هذا الكتاب؛ فهناك العديد من القصص الأخرى والأسماء المختلفة التي حرص المؤلف على الإشارة إليها ليسلط الأضواء أمام القارئ على النشاط السري الخطير الذي مارسته المخابرات السوفيتية ضد مصر وضد شعبها خلال سنوات الهوان السابقة". انتهت فقرة دار النشر.

5. في 25 يونيو 1977 نشرت "جريدة الأخبار" تحت عنوان بارز "ملف التنظيم السري وأسماء أفراده في الوثائق السرية لسامي شرف" ما يلي:

"تم العثور على وثائق وأوراق بالغة الأهمية تملأ أربع حجرات في مبنى الاتحاد الاشتراكي بكورنيش النيل كانت تخص سامي شرف وأخفاها في مبنى الاتحاد الاشتراكي بعيداً عن عمله في رئاسة الجمهورية، وقد وصفت الجهات المسئولة هذه الوثائق والأوراق بأنها تحوي معلومات خطيرة تبين كيف كانت تحكم مصر أيام "مراكز القوى"، وأسرار تشكيل التنظيم السري وأسماء أفراده.

كان سامي شرف يشغل منصب وزير شئون رئاسة الجمهورية أيام الرئيس الراحل عبد الناصر، وكان من بين أخطر المتآمرين ضد الرئيس السادات، وحكم عليه في قضية مراكز القوى بالأشغال الشاقة المؤبدة، كما وجهت إليه تهمة استغلال النفوذ واختلاس عملات أجنبية واستعمال ختم رئيس الجمهورية للتوقيع على قرارات جمهورية دون علم الرئيس الراحل.

وبعد وفاة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر اكتشفت هدى عبد الناصر أن يداً مجهولة عبثت في الخزانة الخاصة بعبد الناصر ووجدت الأوراق بداخلها مبعثرة ووجهت اتهامًا صريحًا لسامي شرف أمام الرئيس السادات بسرقة الخزانة، وأبلغ الرئيس النائب هذا العام، وقد قيل عن سامي شرف إنه العميل الأول للسوفيت في الشرق الأوسط، جاء ذلك في اعتراف الجاسوس السوفيتي الذي لجأ إلى الولايات المتحدة وكشف أسماء العملاء السوفيت في الشرق الأوسط" . انتهت فقرة جريدة الأخبار.

6. في 28 فبراير 1978 نشرت "جريدة الجمهورية" نبأ تحت عنوان بارز "مجلة بريطانية تؤكد: سامي شرف جاسوس سوفيتي" ذكرت فيه ما يلي:

"لندن وكالات الأنباء. . أكدت مجلة "كونفليكت ستدي" البريطانية أن سامي شرف كان جاسوسًا للسوفيت وأنه العميل السوفيتي رقم (1) في الشرق الأوسط في الستينيات، وأنه في عام 1959 كان يستطيع أن يحدد المعلومات التي تصل إلى عبدالناصر والمعلومات التي يمنعها عنه، وكان ينقل التعليمات التي يريدها إلى مجلس الوزراء، وأنه كان يتحكم في تخطيط سياسة عبد الناصر القومية.

قالت المجلة: إن لعبة سامي شرف انتهت عندما قام السادات بثورته للتصحيح وطرد الخبراء السوفيت، وقالت المجلة: إن سامي شرف لم يكن الأول أو الأخير في سلسلة العملاء السوفيت فقد ضبط مساعد "برانت" يتجسس لحساب السوفيت، وانكشف أمر قائد الدفاع الجوي السويسري بعد اعتزاله بثمانية أشهر وكذا "كيم فلبي" الجاسوس السوفيتي الذي كان يعمل بالمخابرات البريطانية، وقالت: إن عبدالناصر ليس أول ضحية للمخابرات السوفيتية فقد كان دائمًا تخون أصدقاءها" .

7. في عام 1978 أرسل "ليفون كشيان" مندوب جريدة الأهرام في الأمم المتحدة بنيويورك عن طريق التلكس برقية باللغة الإنجليزية إلى جريدته تحوي معلومات على

أبلغ جانب من الخطورة تتعلق بالدور السوفيتي للزج بمصر في حرب يونيو عام 1967 والذي ذكرت البرقية أنه لم يكن يقل خطورة عن الدور الإسرائيلي أو الأمريكي. وورد في البرقية أنه في عام 1967 كان رجل يدعى سامي شرف يعد على الأرجح أقوى ثاني رجل في مصر؛ كان صديقًا مقربًا للرئيس ناصر، وكان أيضًا مستشار ناصر لشئون المخابرات، وكان لقبه مدير مكتب الرئيس للمعلومات، ولكن مهمته الحقيقية كانت إدارة عملية المخابرات السوفيتية في مصر، وكان يعد من قبل المخابرات الأمريكية والمخابرات البريطانية الخاصة واحدًا من أهم عملاء السوفيت في العالم، وكان يستهدف جر مصر كلية إلى المعسكر السوفيتي، وكان الذي يضايقه على الدوام هو عدم تخلي ناصر كلية عن ذلك الأمل الذي يراوده في إعادة نوع من التفاهم بين مصر وأمريكا.

وجاء ضمن البرقية المطولة: أن سامي شرف وجماعته كانوا يعتقدون أنه في حالة شن إسرائيل هجومها على مصر فإن ناصرا سوف تتم إزاحته بصفة مؤكدة، وكان لدى شرف ثقة كاملة بالنسبة لوضعه الخاص، وأنه إذا كان في إمكان أحد الوصول إلى السلطة فلن يكون سوى هو وجماعته وعندئذ تصبح مصر في أيدي السوفيت بصفة نهائية مما سوف يعطي للروس أعظم مزية عسكرية في شرق البحر المتوسط.

واستطرد كششيان في برقيته قائلاً: إن تحركات القوات المصرية أزعجت وكالات الأمن الأمريكية، ولذا أوفدت وزارة الخارجية الأمريكية مبعوثين خاصين لتهدئة الموقف، هما "شارلس يوست" و"روبرت أندرسون"، وقد عقد المبعوثان لقاءات مرضية مع ناصر، ووافق الرئيس المصري على إيفاد مبعوثه الخاص زكريا محي الدين إلى واشنطن. واغْتَمَّ شرف عندما رأى المياه الباردة تصب فوق لعبته الخطيرة التي كان يرى فيها فرصة لا تعوض للربح؛ ولكن الإسرائيليين كانت لهم خططهم الخاصة، وبالمثل أصابهم الإحباط نتيجة لمحاولات الوئام المصرية الأمريكية؛ ولذا بادروا بالقيام بضربتهم.

واختتم مندوب الأهرام في الأمم المتحدة برقيته قائلاً: إن خطة الانقلاب العسكري أصيبت بالفشل؛ إذ إن الشعب المصري رفض قبول استقالة ناصر عقب الهزيمة، فقد كانت جاذبيته الشخصية أبعد مما قدره المراقبون السياسيون الروس والأمريكيون.

وفي سبتمبر 1970 خلف السادات ناصر، وفي مايو 1971 تم اعتقال شرف وشركائه؛ علي صبري وشعراوي جمعة ومحمد فوزي بواسطة السلطات المصرية عقب محاولة انقلاب عسكري ضد السادات، وقد حكم عليهم بالسجن المؤبد وحكم على شرف بالإعدام ولكن السادات خفف الحكم.

انتهت البرقية، ومن الطريف أن "كشيان" أخطأ في برقيته للأهرام في ذكر الاسم الصحيح لسامي شرف، فقد دونه في البرقية "عمر شرف" ولكنه لم يلبث أن أرسل عن طريق التلكس برقية أخرى على الفور أورد فيها أنه يأسف للخطأ الذي وقع فيه من جهة الاسم، وأن الاسم ينبغي أن يقرأ سامي شرف، وكرر الاسم مرة أخرى.

هذا ولم تصرح رئاسة تحرير "جريدة الأهرام" وقتئذ بنشر هذه البرقية الخطيرة نظراً لما كان ينتظر أن يحدثه نشرها من أثر سيئ في العلاقات المصرية السوفيتية، ولذا اكتفت الجريدة بإبلاغ المسئولين في الدولة عما تضمنته مع الاحتفاظ بأصلها المحرر باللغة الإنجليزية في أرشيف الجريدة الخاص حيث لا تزال موجودة هناك حتى الآن.

8. جاسوس في بيت الرئيس!!

الأستاذ "ماهر عبد الحميد" كاتب متخصص في الكتابة عن أنشطة المخابرات السرية، وقد ترجمت معظم كتاباته إلى اللغة العبرية.

وقد أطلعني الأستاذ ماهر عبد الحميد مشكوراً على جانب من مذكراته

الشخصية التي تناول فيها أحداثًا هامة وقعت في فترة نهاية الستينيات كانت تختص بطبيعة عمله، وقد أعدها لكي تصدر قريبًا في كتابه، ونظراً لخطورة ما ورد بهذه المذكرات فيما يتعلق بعلاقة سامي شرف بالمخابرات السوفيتية مما قد يكشف للقراء الكثير من الحقائق التي لا تزال غامضة حتى اليوم لذلك آثرنا نشر أهم ما تضمنته من أسرار؛ إذ إن نشرها كاملة يحتاج إلى كتاب خاص، وقد سجل ماهر عبد الحميد في مذكراته ما يلي: من الضروري أن أسجل بداية أنني ترددت كثيراً قبل أن أكتب حرفًا واحداً في هذا الكتاب بقصد النشر، كذلك لابد أن أسجل أنني أقدمت على إذاعة الأسرار التي تضمنها صفحاته متحملاً كل المسئولية وحدي.

إن إخفاء الأسرار، والحرص على كتمانها فضيلة لابد من إتباعها إذا كان تعرض هذه الأسرار للضوء يلحق ضرراً بأمننا القومي، ولست أتجاوز الحقيقة إذا قررت أنني بذلت أكبر جهد ممكن، لكي أدعو إلى إتباع هذه الفضيلة في خمسة كتب، وعدد وفير من التحقيقات الصحفية المسلسلة، ومن خلال الإذاعة والتليفزيون والسينما، ولكن هذه الفضيلة الواجبة الإتباع تنقلب إلى رذيلة ما بعدها رذيلة إذا أدت دون أي ضرورة إلى إخفاء الحقائق عن شعبنا مهما كان حجم هذه الحقائق، ومهما كانت درجة بشاعتها.

لذلك سمحت لنفسي في النهاية بأن أفتح فمي لأتكلم بعد سنوات طويلة من الصمت المطبق، خصوصًا أنني مؤمن عن يقين بأن المعرفة شرط جوهري لصواب الحكم، وكان أكثر ما يؤرقني أنني أسهم في حجب المعرفة عن الرأي العام في موقف من أدق مواقفنا الوطنية على الإطلاق.

- لقد وجهت إلى الاتحاد السوفيتي تهمتان رئيستان:

التهمة الأولى: إنه قصر تقصيراً يصل على حد التواطؤ قبل وأثناء حرب 1967 ليس لأن المخابرات السوفيتية أخفت عن المصريين الخطط الإسرائيلية لتوجيه ضربة مفاجئة فقط، ولكن لأنهم دفعوا مصر لأن تحشد قواتها في صحراء سيناء لتكون فريسة سهلة لسلاح الجو الإسرائيلي أيضًا.

التهمة الثانية: وهي تلك التي راجت في العالم كله بشكل غامض وتتلخص في أن المخابرات السوفيتية تمكنت من السيطرة على مدير مكتب الرئيس عبد الناصر للمعلومات، وإنها استطاعت من خلال جاسوس على هذه الدرجة من الخطورة أن تطلع على كل أسرار مصر دفعة واحدة، كما كان بمقدورهم أن يوجهوا خطوات عبدالناصر في الاتجاه الذي يحقق أهدافهم.

- لقد تعرضت أهم أسرار مصر للتسرب، وتمكنت المخابرات السوفيتية من اختراق مكتب رئيس الجمهورية حيث تصب كل المعلومات المهمة بلا أي تحفظ، وأصبح في مقدورهم أن يقرءوا بعناية أوراقنا كلها، فباءت كل خططنا بالفشل وتعرض اقتصادنا للتبديد بشكل مدروس ومنظم، وفي النهاية منينا بهزيمة منكرة وفقدنا آلاف الشهداء، وهكذا نسقط إلى الأبد في برائن "الأصدقاء" الذين تبنوا أهدافنا القومية بحماس زائف لكي يحققوا أهدافهم وحدها.

فلم يكن سامي شرف ببدنه الممتلئ وقامته القصيرة وثيابه المهدلة مديراً لمكتب الرئيس فقط، ولكنه كان يرأس منظمة حقيقية للمخابرات، وكان عملاؤها منتشرين في كل شبر من أرض مصر، وكانت لديه ميزانية خاصة، وأخطر من ذلك كله أنه كان يطلع على تقارير المخابرات المفرطة في السرية، وكان مكتبه على مسافة أمتار قليلة من غرفة نوم عبد الناصر، وكانت لديه أجهزة تمكنه من التنصت على كل كلمة ينطق بها الرئيس في غرفة مكتبه سواء في قصر الطاهرة أو مبنى الاتحاد الاشتراكي أو رئاسة مجلس الوزراء، وكان بمقدوره أن يقتحم الباب على الرئيس لكي يذكره بشيء ما كما كان يحتفظ بمفتاح خزينته الخاصة.

إن القصة جديرة بأن تروى ليس للمتعة الترفيهية ولكن لنتعلم من أخطائنا، ولكي نستوعب "جميعًا" الدرس جيداً، فقد كان بيننا رجل ارتضى أن يكون جاسوسًا في بيت الرئيس!!

- كنا في أول يونيو 1968 وكانت الساعة تقترب من الثانية بعد الظهر، وبينما كان صوت الآلة الكاتبة ينبعث من مكتب مجاور كان أحد ضباط المخابرات يتأمل بعينين فاحصتين مؤلف هذا الكتاب الذي وجد الشجاعة لأن يكتب بخط يده اتهامًا صريحًا بالخيانة للرجل الذي كان متربعًا عند القمة مستحوذًا على أكبر قسط من النفوذ والسطوة، والذي اشتهر باسم سامي شرف!!
- كان المناخ السائد وقتئذ قاسيًا بشكل لا يصدق، وكان سامي شرف قد انفرد بالسلطة كنتيجة لحرب 1967، بعد الإطاحة بالمجموعة العسكرية التي كانت تستمد قوتها من المشير عبد الحكيم عامر، وبعد أن اختفى صلاح نصر مدير المخابرات المصرية الشهير وراء قضبان السجن، وكان الرئيس عبد الناصر قد أعلن بنفسه عن سقوط ما أسماه "بدولة المخابرات"، وهكذا أصبح سامي شرف وحده فوق خشبة المسرح.

ومن المؤسف أنني كنت اعتقد أن المخابرات هي الجهة الوحيدة في مصر التي تستطيع أن تعرض ما لديها على الرئيس عبد الناصر مباشرة ودون المرور بسامي شرف، وقد اتضح فيما بعد أن اعتقادي ذلك كان خطأ.

وبمجرد أن انتهيت من التوقيع على الأوراق التي قدمت لي صحبني الضابط إلى غرفة مجاورة، وتمتم ببضع كلمات فهمت منها أنني سأبقى لبعض الوقت، ورغم ما في هذه الكلمات من دعوة للتشاؤم فإنني شعرت بالارتياح لأنني سأبقى إلى أن أعرف النتيجة مهما كان كُنْهُ هذه النتيجة بالنسبة لشخصي.

كان موقفي دقيقًا بقدر ما كان شائكًا، فلم تكن في حوزتي أية قرائن مادية، ولكنني كنت استند إلى مجموعة من الوقائع سوف أشرحها بالتفصيل فيما بعد، وقد خلصت من هذه الوقائع إلى أن مدير مكتب الرئيس يخدم سيداً آخر بالقطع!!

ففي ذلك الوقت "صيف 1968" كنت قد قطعت شوطًا طويلاً في العمل تحت

الإشراف المباشر لسامي شرف، وكنت أتخذ لنفسي اسمًا كوديًا يتكون من ثلاثة أسماء، ولأن مهمتي كانت على درجة عالية من السرية لم يكن أحد يعرف اسمي الحقيقي باستثناء ثلاثة: "الرئيس جمال عبد الناصر، وسامي شرف، أما الشخص الثالث فلم يكن سوى محمد عبد الحميد السعيد سكرتيره الخاص" الذي قدم معه إلى المحاكمة في الخامس عشر من مايو 1971!!

هكذا كان الاتهام الذي تحملت مسئوليته بالغ الخطورة في غيبة القرائن المادية، فالاستنتاج الشخصي مهما كانت درجة قوة منطقه يمكن أن يتعرض للنقاش، وبالتالي يمكن دحضه بسهولة لتبقى بعد ذلك النهاية المفزعة لمن يتجاسر على توجيه التهم جزافًا إلى الأبرياء خصوصًا إذا كان المتهم يجمع في قبضته كل مقاليد السلطة في مصر.

قضيت قرابة الساعة في انتظار ما سوف يتمخض عنه الموقف ثم صحبني أحد الحراس المسلحين إلى غرفة أخرى، وهناك اجتمعت باثنين من ضباط المخابرات المحترفين، وبعد ساعات من النقاش المتصل أخطرني أحد الضابطين بأنني سوف أتلقى أوامري منه في المستقبل. أما عن الوقائع التي استندت إليها في توجيه الاتهام إلى مدير مكتب الرئيس فكان رأي المخابرات أنها مجرد تصرفات خاطئة ناجمة عن الجهل بقواعد العمل!!

وعندما أشرت إلى أنني أرغب في أن تتولى المخابرات تحذير الرئيس عبد الناصر، كانت الإجابة التي تلقيتها بالغة الغرابة بل ومثيرة للاندهاش، فقد اتضح أن المخابرات ترسل تقاريرها المرفوعة إلى الرئيس عن طريق مكتب المعلومات حيث يطلع عليها سامي شرف!!

إن القصة مثيرة للسخرية بقدر ما هي مريرة فها هو أحد الجواسيس في موقف يجعله بمنأى عن مجرد توجيه الاتهام إليه، وفي مثل هذه المواقف يصبح التجسس عملاً لا تنجم عنه أية مخاطر، فبحكم منصبه كان بمقدور سامي شرف أن يتصل برؤسائه "المقصود

أولئك الذين جندوه لحسابهم" وأن يمدهم بالمعلومات التي يرغبون في الإطلاع عليها، وأن يتلقى منهم الأوامر بشكل علني!!

هكذا بقى سامي شرف في منصبه ولعلّ أكثر ما في الموضوع إثارة للدهشة كما سيكتشف القارئ هو حقيقة أن المخابرات المصرية كانت تنتابها الشكوك فيما يتعلق بولائه قبل ذلك بسنوات طويلة، وأن هذه الشكوك لحقت أيضًا بعلي صبري الذي اشتهر بولائه للسوفيت، وسوف نورد وقائع محددة في هذا الشأن.

أوفدت القاهرة وفدًا رسميًّا إلى موسكو لحضور المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي، وفي الخامس عشر من إبريل سنة 1971 عاد الوفد إلى القاهرة باستثناء عضو واحد قيل وقتها إنه تخلف لإجراء بعض الفحوص الطبية، ولم يكن هذا العضو سوى سامي شرف!!

ولكن يبدو أن السوفيت يتمتعون بمقدرة فائقة على ارتكاب الأخطاء إذ تسربت معلومات مؤكدة تفيد أن سامي شرف بقى في موسكو ليتدارس مع رؤسائه تدابير القيام بانقلاب للإطاحة بالسادات الذي تولى السلطة بعد رحيل عبد الناصر، ولست أعتقد أن أحدًا يختلف معي في الرأي أن ما أقدم عليه السوفيت وعمليهم المخلص ليس إلا محصلة الجهل والبلاهة معًا.

ولاشك أن قصة سامي شرف مثلها مثل كل قصص الجواسيس ذوي الأهمية القصوى حافلة بأسرار كثيرة لم يكشف النقاب عنها بعد، خصوصًا وأنه حوكم في القاهرة بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم مع علي صبري وآخرين، ولم يحاكم بتهمة الاتصال بالمخابرات السوفيتية الأمر الذي أدى إلى بقاء تفاصيل قصته سرًّا حتى الآن.

ولقد أسفر تفتيش فيلا سامي شرف، وهي الفيلا رقم 10 في شارع بطرس غالي في مصر الجديدة عن قائمة بالغة الغرابة من المضبوطات التي لا تشكل أي دليل فيما يتعلق بتهمة التآمر، ولكنها ترسم علامات ذات مغزى بالنسبة لعلاقته بالسوفيت.

بدأ تفتيش الفيلا في الساعة الحادية عشر والثلث من صباح يوم 24 مايو واستمر حتى الساعة الحادية عشر والنصف ليلاً، وقد عثر في غرفة نوم سامي شرف على سبع عشرة زجاجة فودكا بيضا، وأربع زجاجات شمبانيا روسية، وأربع زجاجات من الفودكا الحمراء!!

ومع هذه الزجاجات الحمراء كانت هناك كومة هائلة من أشرطة التسجيل، وفي علبة معدنية عثر القائمون بالتفتيش على أشرطة سجلت عليها مباحثات الرئيس عبدالناصر مع عد من رؤساء الدول، وفي دولاب الأحذية تم العثور على تسعة أفلام 8 ملم وفيلم 16 ملم بالإضافة إلى فيلم صامت للرئيس عبد الناصر نفسه، ومن المعتقد أن هذا الفيلم قد التقط خلسة!!

كانت أكوام أشرطة التسجيل ومجموعة فريدة من آلات العرض وآلة تصوير سينمائية تملأ المكان، وكان هناك مسدس سريع الطلقات وعلبة تحتوي على اثنتي عشرة طلقة. أما تفتيش غرفة مكتبه وهي الغرفة رقم 17 في مبنى الاتحاد الاشتراكي المطل على نيل القاهرة، فقد أسفر عن وجود أجهزة للتسجيل مخفاة في دولاب بجوار الحائط، وتمتد الأسلاك من تحت الدولاب مخترقة جدران المبنى، وهكذا كان بمقدور سامي شرف أن يسجل كل ما يدور في قاعة الاجتماعات الكبرى وفي قاعة الاجتماعات الصغرى وفي غرفة الصالون!!

ولكن أغرب نشاط قام به سامي شرف في خضم الأنشطة العديدة التي مارسها لحساب السوفيت هو ذلك الخاص بتنصته على الرئيس، فقد تمكن من أن يسمع بأذنه أحاديث الرئيس مع ضيوفه، وكانت الأشرطة تفرغ في نهاية كل يوم للاحتفاظ بمضمونها مكتوبًا!!

إن تلخيص تيار المعلومات الذي كان ينصب في يدي سامي شرف يستلزم ساعات عمل لا طاقة لأي مخلوق بها، لذلك كان من المنطقي أن يعمد إلى تسليم المعلومات في

وثائقها الأصلية إلى السوفيت، وقد حاول قبل القبض عليه أن يهرب خمس حقائب مكتظة بالوثائق مع سكرتيره محمد عبد الحميد السعيد الذي اعترف بالقصة كلها، وفيما يلي إحدى الوقائع التي استندتُ إليها في اتهامه بالتجسس.

كان ذلك ذات صباح مبكر في أوائل سنة 1968، وكنت قد اضطررت للبقاء في مطار القاهرة ليلة بأكملها، وعندما عدت إلى المدينة رأيت أن أقضي بعض الوقت في مكتب المعلومات ولأحتسي شيئًا من القهوة يعاونني على أن أبقى طول اليوم متيقظًا، وما إن عبرت من الباب حتى هالني أن المدخل خال من الحراسة، وكانت الغرفة المبنية من الأسمنت المخصصة لموظف الاستعلامات خاوية تمامًا، وعلى مقعد أمام المكتب كانت كومة من المظاريف متراكمة فوق بعضها، وعلى مظروف قرأت العبارة التالية: الرئيس جمال عبد الناصر!!!

كان الرئيس وقتها في واحدة من زياراته السرية للاتحاد السوفيتي، وكان واضحًا أمام ناظري أن هذه المظاريف تحتوي على بريد الرئيس الذي يضم أخطر التقارير وأكثرها سرية.

وفي التاسعة وأربع دقائق توقفت أمام المدخل عربة تابعة للسفارة السوفيتية، وهبط منها اثنان من السوفيت، واتخذوا طريقهم إلى الداخل، وفي غضون دقيقتين كانت عملية تسليم المظاريف قد انتهت، وأصبح بريد رئيس الجمهورية في حوزة الاتحاد السوفيتي!!

لم يكن من السهل أن تمر هذه الواقعة دون أن تستحوذ على أقصى انتباه من جانبي، وعندما ناقشت الأمر مع محمد سعيد.. وهذا هو اسم الشهرة لسكرتير سامي شرف.. ابتسم بوداعة وأشار إلى أن هذه هي الوسيلة المثلى لإرسال بريد الرئيس إلى الاتحاد السوفيتي.

ولا شك أن هذه الإجابة تعد ضربًا من السذاجة الحقيقية أو المصطنعة، فما معنى أن تتسلم السفارة السوفيتية بريد الرئيس عبد الناصر لترسله إلى وزارة الخارجية في موسكو

لكي تقوم بتسليمه للرئيس هناك خصوصًا وأن لدينا نحن أيضًا وزارة خارجية تستخدم هي الأخرى حقائب دبلوماسية كما أن لدينا سفارة مصرية في موسكو تستطيع أن تسلم بريد الرئيس وهي من غير نقاش أكثر حرصًا عليه!!

إن المظاريف المغلقة بأي نوع من أنواع الصمغ، وبصرف النظر عما فوقها من أختام لا تمثل أي عقبة في وجه أجهزة المخابرات، وهذه الحقيقة يعرفها المبتدئون فكيف غابت عن مكتب معلومات الرئيس؟!

وكان تصور ما يمكن أن يحدث نتيجة لهذا التصرف المفرط في الجهل أو سوء النية، لابد أن يصيب المرء بالفزع، فالقادة السوفيت يقرءون التقارير المرسلة إلى عبد الناصر ثم يجلسون للتفاوض معه، وليس ثمة شك في أنه كان يتعجب من حسن تقديرهم لمجريات الأمور في مصر ودرايتهم الواسعة بما يحدث في بلاده.

لم أكن مقتنعًا لا بإجابة سامي شرف ولا سكرتيره الخاص في موضوع بريد الرئيس؛ لذلك كان تبادل الأحاديث العفوية مع مختار وعبد العظيم الموظفين في غرف الاستعلامات ذا فائدة قصوى، وقد اكتشفت من هذه الأحاديث أن ضباط المخابرات السوفيتية يترددون على المكتب، وأن لديهما أوامر صارمة بأن يسمحوا للسوفيت بالدخول في أي وقت.

وفي وقت لاحق تمكنت من تبادل الحديث مع واحد من الروس، وكانت تربطه صداقة متبادلة مع موظفي الاستعلامات، ولاحظت أنه يرتدي بلوفر ضيق فوق قميص مفتوح، ربما ليخلق وهما بأنه موظف عادي في السفارة، ولكن خطواته وبنيته الرياضية والنظرات الفاحصة التي كانت تشع من عينيه ولدت لدى انطباعًا قويًّا بأنه ضابط محترف من ضباط المخابرات.

كان اسمه الذي يعرفه به الموظفان هو "نيكولا" وكان يحضر إلى المكتب بصحبة روسي آخر صامت دائمًا ويبدو أنه مساعده، وبعد أن التقينا أكثر من مرة عمدت إلى

رفع الكلفة بيننا فكنت أناديه "نك" ولأن لغته العربية كانت كسيحة تمامًا كنا نتبادل الحديث بالإنجليزية، وفيما بعد انتظمت في حلقة دراسية في المركز الثقافي السوفيتي لكي أتعلم اللغة الروسية!!

ولكن سرعان ما حرمت من تلك الصداقة التي عولت عليها كثيراً، فقد تلقيت تنبيهًا مشدداً بألا أجلس في غرفة الاستعلامات تحت زعم أن من بين المترددين على المكتب أشخاص مشكوك في ولائهم، ويبدو أن الأمر صدر بالحيلولة بيني وبين الحديث مع الروسي، فقد حدث أن جاء نيكولا أثناء وجودي في مكتب محمد سعيد، وما إن تلقى إخطاراً تليفونيًّا بوصوله حتى طلب مني أن اختفي في الغرفة المجاورة حتى ينصرف ضيوفه، وقد شاهدت نيكولا ومساعده من النافذة بنفسي؛ كانت شكوكي قد بدأت تثور بحدة حول طبيعة العلاقة بين السوفيت وسامي شرف، وكان علىَّ أن ألاحظ بعد النقاش الذي دار بيننا في مكتبه مجموعة من التصرفات اللامنطقية، والتي كان هدفها إفشال أية مهمة أقوم بتنفيذها تمهيداً للتخلص مني بهدوء ودون أن أجرؤ على مجرد الاحتجاج.

كانت خطط سامي شرف تتضح بجلاء يومًا بعد يوم، وكانت مراقبتي المحدودة لسلوكه مع الضباط السوفيت قد آتت ثمارها، ورغم إحساسي بالندم لأنني كشفت له عن كراهيتي العميقة لدور السوفيت في حرب 1967، فإنني على يقين من أن فائدة جسيمة قد تحققت نتيجة لذلك، فقد اتخذ من الخطوات ما أكد لي أنه لا يعدو أن يكون تابعًا لهم.

وكان ذلك قبل أن ينشر "جون بارون" كتابه الشهير بأربع سنوات، وقبل أن توجه التهمة علنًا لسامي شرف في مايو 1971 بثلاث سنوات، ومما يدعو إلى العجب والدهشة أنه مارس الجاسوسية لحساب رؤسائه دون أن يثير ارتياب أحد إلى حد أن هؤلاء الذين كانوا بالقرب من القمة في عهد الرئيس عبد الناصر ظلوا على إصرارهم في رفض أي احتمال لأن يكون مدير مكتب الرئيس، وموضع ثقته المطلقة عينًا للسوفيت عليه.

وقد تعرض علي صبري لهجوم مرير من جانب المخابرات، فعندما كان مديراً لمكتب الرئيس لاحظ ضباط المخابرات أن كل التقارير التي ترفع للرئيس ضد العناصر الشيوعية تعاد مرة أخرى إلى المخابرات لإعادة البحث!!

وحدث أن كتبت المخابرات تقريراً ضد رئيس مجلس إدارة شركة تعدين في سيناء، وكانت تربطه بعلي صبري صلة قربى، وتضمن التقرير مآخذ خلقية فاضحة، وكان الرجل مستهتراً إلى درجة لا يمكن تصديقها، وكانت سكرتيرته تذهب إلى عملها من غير أية ملابس داخلية، كذلك عين مستشاراً قانونيًّا له وكان هذا المستشار شهيراً في العهد الملكي بعدد لا بأس به من جرائم القمع!!

وكان علي صبري بدلاً من أن يعرض التقرير على الرئيس عبد الناصر احتفظ به في مكتبه، ثم ارتكب حماقة فظيعة عندما أطلع قريبه على التقرير الذي كتبته المخابرات ضده، ويبدو أنه كان ثرثاراً بقدر ما كان ماجنًا، فقد طفق يثرثر بالمعلومات التي اطلع عليها، وأسرعت المخابرات بتسجيل بعض أحاديثه لعرضها على الرئيس.

ورغم ذلك لم يول الرئيس عبد الناصر تقارير مخابراته أي اهتمام، ولكن بعد وقوع الانفصال في الثامن والعشرين من سبتمبر سنة 1961 الذي قصم عرى الوحدة المصرية السورية فوجئ عبد الناصر بالوزير السوري طعمة العوض الله يقول له:

ـ سيدي.. علي صبري مو مخلص!! "ليس مخلص"

واتضح أن الوزير السوري طلب أن يلتقي الرئيس ليحذره من حركة انفصالية وشيكة الوقوع، ولكن علي صبري لم يمكنه من لقاء الرئيس إلا بعد أن وقع الانفصال بالفعل!!

إننا نستطيع أن نربط الحوادث ببعضها فعلى عكس الشائع كان الاتحاد السوفيتي هو المسئول عن أول محاولة لتحقيق الانفصال بين مصر وسوريا، وقد تلقت القاهرة تقريراً حوى كل تفاصيل المؤامرة في ذلك الوقت.

ولم يكن علي صبري وحده موضع ارتياب المخابرات، فقد لاحظ الضباط المسئولون عن متابعة النشاط الشيوعي في مصر أن تقاريرهم التي تعرض على سامي شرف لا تلقى أي اهتمام، وعندما اكتشفوا تنظيمًا للشيوعية في جامعة الإسكندرية أوقف التنظيم نشاطه بمجرد أن عرضت التقارير الأولية على مدير مكتب الرئيس!!

وتكررت ظاهرة "توقف النشاط" مرات عديدة، وإن كانت متباعدة، واضطر أحد الصباط إلى الإفضاء بشكوكه إلى صلاح نصر الذي استمع إلى مرءوسيه بهدوء ثم ابتسم، وعندما جاء دوره ليتحدث قال: إن الخطأ ربما يرجع إلى العناصر التي تقوم بالمراقبة، وأتبع هذا الرأي أن أصدر أوامر شديدة بأن يتوخى الأفراد المكلفون بمراقبة التنظيمات الشيوعية الحرص والحذر.

ومن الغريب أن سامي شرف، بمظهره الذي ينم عن الوداعة، قد تمكن من خداع جهاز المخابرات بعد هذه الشكوك، واستطاع بمهارة فائقة أن يضم إلى جانبه ثلاثة من كبار الضباط أحيلوا إلى التقاعد بعد القبض عليه. ويقتضينا الإنصاف أن نقرر أن هؤلاء الضباط كانوا يعتقدون أنهم يعملون لحساب الرئيس عبد الناصر نفسه!!

وكان صلاح نصر قد نجح في إبعاد ثلاثة من ضباط المخابرات كان يعتقد أنهم على علاقة وثيقة بسامي شرف، ولكن لم يصارح الرئيس عبد الناصر بشكوكه، وإنما اكتفى بأن طلب إبعادهم لاستحالة التعاون معهم، ومن المدهش أن اثنين من الضباط الثلاثة قُدِّما إلى المحكمة مع سامي شرف في مايو سنة 1971، والضباط الثلاثة هم: أمين هويدي الذي عين سفيراً في العراق، وطلعت خيري الذي عين وزيراً للشباب، وشعراوي جمعة وقد عينه الرئيس محافظًا للسويس.

وليس لدينا أي شك في أن سامي شرف استفاد إلى أقصى حد من عدم ثقة عبدالناصر في مدير مخابراته، وربما كانت عمليات تجنيد ضباط من الجهاز قد تمت بأوامر عبدالناصر، ولكن المعلومات التي كان هؤلاء الضباط مصدرها لابد أن تكون قد

سلمت للسوفيت وكان عبدالناصر قد أسرع إلى مجموعة من زملائه إبان ما يعرف بأزمة 1962 بينه وبين المشير عامر، بأن صلاح نصر ليس مخلصًا وأنه يجتمع يوميًا بالمشير عامر!!

إننا أمام حالة فريدة بالفعل في عالم التجسس؛ لأن الجاسوس يتمتع بكل الإمكانات ليمارس أنشطة متعددة بل أنشطة الجاسوسية كلها.

فهو يجمع أكبر كم من المعلومات، ويطلع على تقارير المخابرات، ويجند داخل الجهاز مجموعة من الضباط ليكون على بينة بكل ما يجري بعيداً عنه.

وهو يتولى قيادة جهاز ضخم لجمع المعلومات السياسية والاقتصادية، ولبث الأنباء الكاذبة والإشاعات، وهو مؤثر في شخصية القائد بحكم قربه منه، ولديه القدرة على الاتصال برؤسائه دون إثارة الشكوك، وهو محاط بأقوى سياج للأمن!! "انتهت أقوال الأستاذ ماهر عبد الحميد".

لماذا نطالب بإجراء التحقيق؟

وأخيراً وبعد أن قمنا بتسجيل هذا القدر الوافر مما سبق نشره في داخل مصر وخارجها من اتهام صريح لسامي شرف بالعمالة للسوفيت نرى أنه بات من ألزم الأمور على أجهزة الأمن المختصة في مصر التحقيق في هذا الاتهام الخطير خاصة أنه يشمل تواريخ وأسماء ووقائع محددة يمكن بسهولة التوصل إلى كنهها وكشف الستار عن سرها.

وليست مطالبتنا بإجراء التحقيق في مثل هذا الاتهام الخطير أمراً يدعو إلى الاستغراب، فلقد كشفت أجهزة الأمن في الغرب في الآونة الأخيرة الستار عن عشرات من قضايا التجسس التي ثبت فيها أن المخابرات السوفيتية قد نجحت في تجنيد بعض العملاء الذين كانوا يتولون أخطر المناصب وأكثرها حساسية في الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية وبعض الدول الأوروبية الأخرى.

وكان أخر هذه القضايا قضية التجسس في ألمانيا الغربية التي أزيح الستار عنها خلال الأسبوع الأخير من شهر أغسطس 1985، والتي وصفتها وكالات الأنباء بأنها أضخم فضيحة تجسس في تاريخ ألمانيا الغربية، فقد نجح جهاز المخابرات بألمانيا الشرقية في تجنيد "يواخيم هانز تيدج" الرجل الثالث في جهاز المخابرات الألمانية الغربية الفيدرالية، ورئيس إدارة مكافحة التجسس منذ عام 1966؛ أي أنه ظل طوال ما يقرب من عشرين عامًا يمد مخابرات إحدى دول الكتلة الشرقية بأدق أسرار بلاده، وعندما انكشف أمره ونجح في الهروب إلى برلين الشرقية تفجرت في ألمانيا الغربية أخطر قضية تجسس في تاريخها، وبادر مستشار ألمانيا "هيلموت كول" بإقالة "هيلينبرويخ" رئيس جهاز المخابرات الفيدرالي بألمانيا الغربية، باعتباره المسئول الأول عن هذه الفضيحة التي هزت الرأي العام لا في ألمانيا فحسب بل في أوروبا الغربية والولايات المتحدة.

وقبل أن نختتم دراستنا لهذه القضية الخطيرة التي فجرها "جون بارون" عام 1974 منذ أن نشر كتابه (K.G.B)، ولم تجد ما تستحقه من اهتمام لدى السلطات المسئولة في مصر رغم أهميتها الكبرى، وبعد أن أوضحنا وجهة نظرنا في ضرورة قيام أجهزة الأمن بالتحقيق الجاد في هذه القضية في سبيل التوصل إلى الحقيقة. يحق لنا أن نتساءل في النهاية هل الأنسب الاكتفاء بتقديم بلاغنا ضد سامي شرف إلى محكمة التاريخ كما ذكرنا في البداية؟ أم أن الأفضل ولصالح الوطن، وبعد أن تكشفت كل هذه الأمور تقديم هذا البلاغ إلى النائب العام؟

إننا نترك الإجابة عن هذا السؤال إلى تقدير القراء.